أوراقُ مطرٍ مُسافرٍ

(قصص قصيرة)

نسب أديب حسين

دار الجندي للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
009722340035
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

*

أوراق مطر مسافر
نسب أديب حسين

*

الطبعة الأولى (2013)
جميع الحقوق محفوظة
فلسطين
البريد الالكتروني: nasab_book@hotmail.com
لوحة الغلاف: الفنان طالب دويك
التدقيق اللغوي: أ. عماد الزغل
تصميم الكتاب: وائل واكيم

*

ISBN 978-9950-383-44-9

*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر والمؤلف.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

obeikandl.com

obeikandl.com

أوراقُ مطرٍ مُسافِرٍ

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــــداء

اليكِ

حيثُ ما اقتنص لا الرهام ولا الزوابع
أبعاد الأفقِ عن عينيكِ
كلما سافرت تتبعُ خطوي.. أو عادت
بلهفٍ ترتقب عَودي
الى أمي

obeikandl.com

هذه القصص

تكتب نسب أديب حسين قصصها من دون تكلّف أو حذلقة أو تعقيد، وتختار مادتها القصصية الخام مما حولها من ظواهر ووقائع وأحداث، ثم تقوم بتطويعها لتصبح عبر لغة السرد المتأني والصياغات اللغوية الجميلة قصصًا لها وقعها المؤثر في النفوس.

وهي تجعل للمكان وللذاكرة حضورًا ملموسًا في قصصها، وهذا أمر متوقّع من كاتبة تعيش في قرية الرامة الجليلية، حيث المكان الفلسطيني مهدّد بالمصادرة وبالاستيطان، وحيث الذاكرة الفلسطينية عرضة للمحو وللتشويه. ولا يظهر المكان في قصص نسب أديب حسين مجردًا أو عابرًا، بل هو مكان مغموس بالذكريات، ذكريات الطفولة حينًا، وذكريات الأهل والأجداد حينًا آخر.

ففي قصة «شجرة الزنزلخت» نلمس مدى التعلّق

بالمكان وأشيائه والمشاعر الحميمة المرتبطة به، والذكريات المتشابكة معه. فثمة شجرة قريبة من البيت، ولساردة القصة ذكريات معها تبدأ من الطفولة، وثمة تحريض على قطع الشجرة، والساردة لا تصدق أنها سوف تقطع، لكنها تسمع ذات نهار صوت منشار، وتفاجأ بشخص يقطع الشجرة وهي تنتفض محتجّة، وتتمكن في اللحظة الأخيرة من انقاذ الشجرة من القطع.

وهنا نلمس ميزة في قصص الكاتبة، وهي ابتعادها عن الشعارات، وبالذات لدى التطرق للعلاقة مع الاحتلال أو لممارساته التعسفية ضد الشعب الفلسطيني التي تصل حدّ إعلان الحرب والإقدام على قتل الأطفال والمدنيين بشكل عام. تبدو الكاتبة في هذا المقام كما لو أنها محايدة وهي ترصد الظواهر وتتابعها بلغة هادئة متزنة. وفي حقيقة الأمر، فليس ثمة حياد، وإنما هو الانضباط الذي يسمح للغة بأن تفعل فعلها في النفوس، وللمشهد القصصي بأن يتسرب إلى مشاعر المتلقي من دون تكلف أو استعجال.

صحيح أن ثمة مباشرة في بعض الحوارات، وثمة إصرار في بعض الأحيان على توصيل المعنى إلى المتلقي، ربما رغبة من الكاتبة في التعبير عن موقف ملح لا يحتمل التأويل، إلا أن ذلك ليس هو الطابع العام لقصص المجموعة، ولا هو سمتها الرئيسة.

وحينما تتطرق الكاتبة إلى العلاقة مع الآخر، فهي لا تذهب إلى المناطق المعروفة التي سبق للكتابة الفلسطينية أن طرقتها، بل تذهب إلى مناطق جديدة، وقد تكون هامشية لكنها غير مطروقة، ومثال ذلك: التعبير عن مأساة المدينة عبر الأصوات كما في قصة « هواجس عند مدامع المدينة»، أو فضح عمليات مصادرة الأرض من خلال لوحة فنية كما في قصة «وميض عند الهاوية»، أو استخدام الرمز الشفاف الذي يفضح هشاشة التعايش المشترك ما دام هنالك احتلال، والسخرية الظريفة من شرطة إسرائيل، كما في قصة «رهبة بناية» التي تستفيد من تقنيات الأدب البوليسي وما فيه من تشويق.

ويمكن أن نسوق أمثلة أخرى، مثلاً: الذهاب إلى بعض تفاصيل الحرب التي تعرّضت لها غزة، حيث نرى في قصة «أشياء لم يجمدها الصقيع بعد» كيف اختبأ الإسرائيليون تحت المقاعد، وبقي الفلسطينيان جالسين في القطار، أثناء إنطلاق صفارة الإنذار منبهة إلى اقتراب صاروخ قادم من غزة إلى تل أبيب. أو ما جاء في قصة «مع الريح وخلف العاصفة» حين التقت المرأتان الفلسطينية والإسرائيلية وهما تعانيان من السرطان. ولكن أي سرطان هو؟ الفلسطينية تعاني من السرطان الذي حلّ بقريتها المنكوبة واستأصلها منها، والإسرائيلية تعاني من سرطان الثدي. ورغم التشابه

الشـكلي في التسـميات، فليـس ثمـة مـا يجمع بـين المرأتين في الحقيقـة، و يتأكـد ذلـك حينما يظهر ابـن المـرأة الإسرائيلية، الجنـدي القـادم مـن الحـرب، تحتضنـه أمـه، ثـم تفـترق المرأتـان ولا تلتقـي عيونهما.

ومـن الأمثلـة كذلـك: الفرق بـين خيمـة الفلسـطيني الناتجة عـن تشريـده واحتـلال وطنـه، وخيمـة الإسرائيـلي المنصوبة تعبيرًا عـن الاحتجاج من أجـل مطالب اجتماعيـة واقتصادية. ولا يقتـصر اهتمـام الكاتبـة عـلى إجـراء مقارنـة بـين خيمة الفلسـطيني وخيمـة الإسرائيـلي، بـل هـي تذهـب بعيـدًا في تبيـان قـدر الخيمـة الـذي يلاحـق الفلسـطيني منـذ النكبـة الكـبرى التـي وقعـت قبل خمسـة وسـتين عامًا، فنـرى الجد يـروي لحفيـده عـن تلـك الأيـام القاسـية وعـن السـكن في الخيـام، ويقول متأسـيًّا بمـرارة : الله يقطع هذيـك الأيام. ثم تنتقـل الكاتبـة لتعرض مشـهد هـدم البيت الـذي يعيش فيه الفلسـطيني، ليكـون مصيره السـكن في خيمـة، فيعلق الحفيد عـلى الحالـة الراهنـة: اللـه يقطع هـاي الأيـام. بمـا يعني أن النكبـة مـا زالت مسـتمرة.

وتتعـرض الكاتبـة لجانـب آخـر مـن معانـاة الفلسـطينيين جـراء الاحتـلال الإسرائيـلي، وهو متمثـل هذه المرة في مشـكلة الأسرى الفلسـطينيين، ومـا يعانونـه هـم وأهلهـم مـن هـذه المشـكلة. ففـي قصـة «شـتاء آخر دونـك» ثمة سرد شـاعري

يستبطن مشاعر الفتاة التي تفتقد خطيبها الأسير المحكوم مؤبدين في سجون الاحتلال، وهي تتأسى عليه، لكنها تجد العزاء في تعاطف الناس معها بسبب ما تعانيه.

إلى جانب الاهتمام برصد بعض مظاهر الصراع مع الآخر، والارتباط الحميم بالمكان، والاعتماد على مخزون الذاكرة وتوظيف هذا المخزون في تعزيز الرواية الفلسطينية عن علاقة الفلسطيني بالمكان، وعن عمق هذه العلاقة وأصالتها، فثمة تطرّق إلى موضوعات إنسانية توسّع المدى الذي تتحرك فيه القصص.

فثمة في القصة الأولى «احتمالات قليلة.. مسافات أقصر» استبطان لهاجس الموت، ولتقاطع المصائر والتقائها عبر العلاقة التي تنشأ بين المريض والطبيبة، تلك العلاقة التي لا تعترف باختلاف الهويات، ولا تقيم وزنًا إلا للهامش الإنساني المشترك بينهما.

وثمة في قصة «سؤال» تطرّق إلى صعوبة فقد الأب على قلب الإبنة، وافتقادها له في اللحظات التي تتمنى أن تجده إلى جوارها، في المستشفى مثلاً. وأعتقد أن هذه القصة استمدّت مادتها من واقع الكاتبة نفسها التي فقدت أباها الطبيب وهي طفلة. وفي قصة «جدائل الألحان والحروف» معالجة رومانسية لعلاقة حب بين شاب وفتاة، والموسيقى هي العنصر الوسيط في العلاقة. وليت الكاتبة لم تلجأ إلى تلك

النـبرة الإرشـادية العاليـة التي ظهـرت في الحـوار. وفي قصة «وهـم قصيـدة» تعيش الفتـاة علاقة غير مسـتقرّة مع شـاب عـلى إيقاع قصيـدة لمحمـود درويش.

أمـا أجمـل قصص المجموعـة فهي التـي اختتمت بهـا الكاتبة قصصهـا. إنهـا قصـة «رسـائل بـين البحـر والصحـراء» المكتوبـة بلغـة شـاعرية، حيـث يتنـاوب الرجـل والمـرأة على السـرد، وحيـث يتأكـد مـن سـياق القصـة مـا أوردتـه المرأة وهـي تقـول: « مـا كنـتَ يومًـا رجـلا عاديًـا.. لأكـون امرأة عاديـة تـرضى بمـا أرضيـتَ بِـه من قبـلي النسـاء..»

وتحية للكاتبة نسب أديب حسين.

محمود شقير

القدس 14 / 6 / 2013

obeikandl.com

obeikandl.com

المطر.. الحلمُ المعتق في جسد الغيم
كلما وُلدَ بحث مرّة أخرى عن ولادة.
لا تنسيه الدروبُ أمل السحاب..
بل تلملمه رشفة
في رسالة..

obeikandl.com

obeikandl.com

احتمالات قليلة.. مسافات أقصر

حائزة على الجائزة الثانية من مسابقة نجاتي صدقي 2012
عن وزارة الثقافة الفلسطينية

تنفس الصعداء بعد أن تمكن أخيرًا من اتخاذ مقعدٍ، راح ينظر عبر النافذة، يتابع المارين. مرت بضع لحظات حتى اتخذت عجوز مقعدًا بجانبه. استمر يحدق نحو واجهة محل تجاري قبالته يحاول أن يميز ملامح وجهه ويتساءل تُرى كيف يبدو؟ هل تظهر عليه علامات السهر؟
تحركت الحافلة.. حانت منه نظرة باتجاه الركاب، رآها تقف قريبًا تتمسك بواقٍ حديدي مثبت الى المقاعد، راحت تمعن النظر في عينيه وشعر بنوع من الغضب أو الحقد في عينيها، أشاح بوجهه عنها وعاد للنظر الى الطريق. الناس يمرّون بسرعة كل في وجهته، عجائز يجلسون على مقعد يراقبون، شحادة تجلس قرب مركز تجاري.. هذا هو

obeikandl.com

حـال مركـز المدينـة.. ازدحـام وأناس مـن جميـع الأصناف.
تتوقـف الحافلـة عند محطـةٍ أخـرى، تجمهر الـركاب خلف الطـرف الثانـي مـن زجـاج النافذة فمنعـوه من رؤية نفسـه على زجـاج المحل التجاري. أشـاح بنظـره الى داخـل الحافلة، فوقـع نظـره عليهـا، مـا زالـت ترمقـه بـذات النظرة، شـعر بالضيـق والاختنـاق فتنهد تلقائيًا، أشـاح بنظـره عنها لينظر الى سـاعته إنهـا الحاديـة عـشرة، تـرى هـل سـيتمكن مـن الوصـول الى موعـده بعـد نصف سـاعة؟
بات يشـعر بالضيـق مـن نظراتها، لكـن نخوته لن تسـاعده اليـوم لكـي ينهض ويـترك امرأة عجـوزًا تجلـس مكانه.
عندمـا صعـدت الى الحافلـة وتقدمـت وقـع نظرهـا عليـه فاقتربـت، إذ بعـث شـكله في البدايـة الراحـة في نفسـها يبدو مـن ملابسـه الفاخـرة وملامحـه الهادئـة أنـه يمتلـك الكثير مـن اللباقـة كي ينهـض ويدعـو عجـوزًا مثلها للجلـوس. إلا أنّهـا بعـد أن وقفت قريبًـا، وراحت تنظر الى يديـه المتكاتفتين ونظـره عـبر النافـذة اعتبرته تجاهـلا منه لوجودها. اشـاحت بنظرهـا عنـه وراحـت تنظـر عـبر النافـذة ، تتسـاءل لمـاذا هـم شـبان اليـوم بهـذه الوقاحـة، لا يحترمـون ولا ينهضون لإجـلاس امـرأة عجـوز؟ صحيـح أنّهـا لا تمتلـك الكثـير من المشـاكل الصحيـة وهـي تحمـد ربها على ذلـك، لكنّهـا تتعب بسرعـة ومـن المفـروض أنّ شـابًا مثلـه يقـدر هـذا وينهض

لأجلها .

تحـدق في عـازف «الساكسـفون» الجالـس هناك قـرب المركز التجـاري تتسـاءل كـم من الأعـوام قضاهـا هذا الرجـل وهو جالـس هنـا في هذه الزاويـة، وراحت تحـاول التذكـر وعندما عجـزت وعـادت لتنظـر اليـه كان قـد اختفى عـن نظرها.

ينظـر الى أعـلى نحو زرقة السـماء ويفكـر بسـوادها في الليل، كـم صار يخـشى ظلام الليـل، بات يقـضي معظم هـذه الفترة مـن اليـوم بصحبـة القمـر، يقـرأ وينظـر اليـه بـين الحـين والآخـر الى أن ينهكـه النعـاس، يراقبـه كيـف يغـير زاويـة ظهـوره كل مسـاء؟ غـدا القمر فجـأة صديقه الوحيـد، وكلما تأخـر ظهـوره ازداد ضيقـه. كانـت ليلـة أمس عصيبـة.. لم يسـتطع أن يطلـع أحـدًا عمّا يلم بـه، غاب القمـر وظهر شيء آخـر عنـد النافـذة يطرقها، ويبتسـم له يطلب منـه أن يتقرب اليـه أكثـر، وأجهد نفسـه طيلـة الليل وهـو يحـاول أن يطرد ذاك عـن نافذتـه وعـن مخيلته وعن ليلـه وكم خشي الفشـل. هـي.. لا تـزال واقفـة في مكانهـا بينهمـا مسـافة قصـيرة، ويتقاسـمان النظـر عبر نافـذة واحدة، هي تحـدق في وحدتها التـي لـم تعد تدري كيـف تتجاوزهـا لا تنجح في الفـرار منها لا في بيتهـا الصغـير ولا في الحافلـة ولا في الطريـق. كانت ترى ذاك الـشيء قريبًـا بعيـدًا منهـا وأكثـر مـا تخشى أن يتسـلل اليهـا وهي وحيـدة في بيتهـا، لكنّهـا الان تنتبه أنّهـا في وحدة

في جميـع الأمكنـة حتى بـين المقربين منهـا، فلمـاذا تقلق من موعـد تسـلله اليها؟!

توقفـت الحافلـة كانـت هنـاك فتاة عـلى المحطة عـلى الطرف الآخـر من الزجـاج، لم تحـاول أن تسـارع الى الحافلة، راحت تنظـر اليهما عبر النافـذة وتفاجأت عندمـا رأت ذات النظرات في عيونهمـا ومـا كادا ينتبهـان اليهـا حتى تحركـت الحافلة، فنظـر كل واحـد منهما باتجـاه الآخر في ذات اللحظة وأشـاحا بصرهمـا في اللحظـة ذاتهـا أيضًا. نظـر إلى سـاعته، الحادية عـشرة والربع، بقـي ربع سـاعة، ويتضح لـه كل شيء.

تقـترب الحافلـة مـن المحطـة المركزيـة، حيث سـينزل العديد من الـركاب ولـن يبقى سـوى محطتين حتى تصـل محطتها الأخـيرة التي هـي وجهته.

تتوقـف الحافلـة، شـاب وشـابة يتعانقـان، عـددٌ كبـير مـن الـركاب ينـزل، وعددٌ أقل يصعـد، وعندما صعـد الراكب الأخير تركـت الفتـاة يـد صديقهـا، أُغلـق بـاب الحافلـة، صديقهـا يناديهـا، الحافلـة بـدأت بالتحـرك، الفتـاة تعدو، وجد نفسـه يـصرخ مناديًـا السـائق كـي يتوقـف، لكنّ السـائق لـم يعره انتباهًـا، واسـتمر في طريقـه. اسـتدار الى الخلـف، رآى الفتاة وقـد توقفت وجـاء صديقها يعـدو خلفها ليضمهـا من جديد. عـاد لينظـر الى الأمـام مـاذا يعنـي أن تفقـد هـذه الحافلـة سـتأتي أخـرى بعد ربع سـاعة، سـتكون قـد منحـت للقائها

بحبيبها عمرًا أطول بربع ساعة، أليس هذا أجمل من أي موعد آخر ستذهب اليه متأخرة ربع ساعة من الزمن؟.
فجأة تذكر تلك العجوز التي كانت تحدجه، نظر باحثًا، المقعد بقربه خالٍ، أما هي فتجلس في المقعد المقابل.
تأمل قبعتها البيضاء، أحمر الشفاه الذي يطلي شفتيها المزمومتين، قميصها الأزرق وتنورتها البيضاء وتأكد أنّها أكبر مما يوحيه مظهرها الخارجي.
هي تنظر الى الجهة المقابلة للشارع باستغراب ، كيف يبدو الطريق مغايرًا عندما تنظر اليه من وجهة أخرى. لقد اعتادت ان تنظر الى هذه الجهة في طريق عودتها بالحافلة وليس في الذهاب، وها هي الآن تنتبه الى تفاصيل من المكان لم تكن تراها من قبل. توقفت الحافلة نظرت الى الركاب الثلاثة غيرها نزل اثنان واستغربت أنّ الشاب لم ينزل، أغلق السائق الباب واستمر في الطريق وهي بعدُ مندهشة، هل يقصد المكان الذي تقصده؟ لكنّها لم تره هناك قبل ذلك، أهو موظف جديد؟ أم جاء لزيارة قريب؟.
نظر الى الساعة إنّها الحادية عشرة وخمس وعشرون دقيقة.. يزداد توتره.
تتوقف الحافلة، نهضت العجوز بسرعة، نزلت وبدأت تسير، صوت محرك الحافلة لا يزال مرتفعًا، الحافلة لم تغادر بعد، استغربت.. استدارت الى الخلف، رأته عند باب

الحافلة يحاول النزول بصعوبة، عادت إليه مدت يدها لتمسك بيده وعندما أنزل رجله الى الأرض صرخ متألّما. اشتدّ استغراب العجوز وعندما وقع نظرها على بقعة بنفسجية على ذراعه الأيسر صرخت : يا إلهي!! ما هذا..؟ ابتسم، هز رأسه، وراح يسير ببطء قربها ويحاول أن يعدل مشيته لتكون مثلما كانت سابقًا «أيام الشباب» لكن آلامه تمنعه..

قال: إنّها آثار فحوص الدم التي أجريتها، ففي الفحص الأخير تعبت المرضة وهي تبحث بنصل الإبرة عن الوريد وكانت هذه هي النتيجة.

ـ يا إلهي يجب أن تذهب الى مستوصف آخر، يجب أن لا تسمح بهذا.

وصلا الى مدخل المشفى اتجه هو نحو الاستعلامات، وهي غابت في الدهاليز. أرشدوه الى مكان العيادة، وعندما وصل اليها كانت الساعة 11:35 طلبت المرضة منه الانتظار بعد أن أخذت بطاقته الصحية. جلس بصعوبة، واستغرق في التفكير ترى ماذا ستقول له هذه الطبيبة؟ أخبروه أنّها أفضل المتخصصين في المشفى، عليه أن يستمتع بهذه اللحظات التي لا يعلم فيها مدى خطورة مرضه، قبل أن يراها وتؤكد أنّه لم يبق له من العيش اليسير الكثير. يسند رأسه الى الحائط يحاول أن يتخيل الوضع الذي يلم

بعضلاتــه، بعظامــه، كان هــذا آخــر مــا يتوقع مــن أمراض، أعتقــد أنّ قلبــه من ســيخونه لكثــرة ما نزلت بــه من عواصف وصواعــق ولكثــرة مــا نشــبت بــه مــن حرائــق، لقــد خانــه جســده وراح رمــاد حرائقه يترســب في عظامه ينهشــه ببطء، ليجعلــه عاجزًا.

في الســاعة 11:45 طلبــت منــه الممرضة الدخــول، دخل ببطء وقبــل أن ينظــر الى الطبيبة راح يســتدير ليغلــق الباب، فجاءه صوتها: «هذا أنــتَ إذًا ..»

استدار، ذُهل من هول المفاجأة.. إنّها العجوز ذاتها.

أشــارت لــه أن يتقــدم ليجلــس، بعــد أن جلس ابتســمت بودّ، اســتغرب منــذ زمن لم يبتســم لــه أي طبيــب، ينظــرون اليه بفتــور ويهزون برؤوســهم غــير راضين.

قالــت: «لا تقلــق يا بنــي لقد اطّلعــت على فحوصاتــك الاخيرة وملاحظــات الأطبــاء، إنّ مرضك ليــس بالخطــورة التي تظن، انها التهابات بســيطة..»

اســتمرت بالحديــث طويلا عن كيفيــة العلاج، لكنّــه كان بعيدًا عنهــا بفكــره، كان يفكــر بغرفتــه، بــذاك الشيء الــذي يطرق النافــذة في الليــل يحــدق فيــه ويأمــره أن يذهــب معــه، أخيرًا ســيرحل عــن نافذتــه.. أخيرًا ســيتمكن مــن النــوم دون قلق..

2010\9\8

هواجس عند مدامع المدينة

أخرج للسير بمرافقة ظلٍ ومساءٍ يستعد للمجيء، في طريق فيه من الغرباء الكثير..
أتابع خضرة أشجار توشح الطريق، واستغرب كثرة السائرين في مثل هذا الوقت، فعادة ما يقل الذاهبون والقادمون مساء يوم الجمعة.
تقبل علي طفلة تمسك براحة أبيها وأسمع صدى صوتها من بعيد، تتكلم وتكثر من الكلام وعندما تمرّ بي أسمعها تخاطبه بلغتها العبرية «لا أستطيع..»
تساءلت ترى ماذا لا تستطيع، ما همها هذه الصغيرة؟ أهو كما كان همّي يوم كنت في عمرها؟
(كيف يمكن لأرجوحتي أن تصل السماء؟ كيف أحلق قرب العصافير؟ كيف أجعل الريح تحمل طائرتي الورقية؟)

obeikandi.com

كم رائعة ثرثرتها تلك الطفلة، كنت مثلها ذات يوم كثيرة الكلام منذ تعلمت إتقان الكلام.. اليوم أمضي وحيدة أنا وظلي، والظلّ يفهم جميع اللغات، فصرت أحادثه في صمتي وعدت كثيرة الثرثرة منذ تعلمت إتقان الصمت.. أجدُ الظلَ يربت على كتفي «لا بأس يا صغيرتي ونسير أنا والظل والطريق..».

يقاطعني عن حديثي الصامت صوت يقترب أنظر الى الأمام باحثة، فتاة في مقتبل العمر تقترب وهي تغني بصوت مرتفع، إثر اغنية تسمعها عن طريق جهاز مثبت الى خصرها. صوتها يملأ المكان، واستغربت جرأتها ففي صوتها الكثير من النشاز وتمضي به بشكل جهور كأنما الطريق ملك لها. على بعد أمتار عني صمتت لست أدري هل انتبهت لانتباهي اليها؟ هل شعرت أنّها تقاطع حديثي السّري..؟ مرّت بقربي بصمت وعندما راحت المسافة بيننا تكبر عاد صوتها ليرتفع.

شعرت بصمتي يكبر يا لجرأتها تسير وحدها وتبعثر الكلام كيفما اتفق، وأنا إن ناديت في صمتي أسمع صدى ندائي في قلبي يُحدث هوةً وقد تسقط بضع خلايا من ارتداد الصوت ولا من مجيب.. وإن نظرت عيني وبحثت عن شيء من الحقيقة في نور الغد تجد أن كل ما رأته سراب..

سرابٌ إذًا وأمـضي.. سراب إذًا وأسْرِع.. سرابٌ إذًا وأعـود الى وتيرة سـيري..

ويمـرّ مـن يمرّ مـن الماريـن، من ينشـد الرياضة، ومن ينشـد الترويـح عـن النفـس، ومن يبحـث عـن كنيس، ومـن يبحث عـن حلم..

مجموعـة مـن العجائـز قبالتي يخرجـون من بيـت متحدثين باللغة الاسـبانية ومع اقترابي شـخصت الي عيونُهـم الثمانية. عيونُهـم مثبتـة نحوي ربمـا ميزوا أنني لسـت منهـم.. عندما ابتعدت سـمعتهم يقولون «شـبات شـالوم» ويفترقون لأربعة وأربعـة عيـون.. اسـتغربت تلـك الطمأنينـة والاسـترخاء في اسـتقبال السـبت في هـذا الحـي مـن المدينـة بينما قـد تكون عائلـة أخـرى في حـيّ مقابـل تتلهـى بالأحاديث، تحـاول أن تنـسى جـرح الصبـاح والنـزاع لمحاولة منعهـا من اسـتقبال الجمعة..

فجـأة ارتفـع صوت المـؤذن، كلمـات عربية تصـدح في المكان، تصل مـن قريـة عربية مجـاورة، قد ينزعـج القاطنـون هنا، ربمـا كان عليهـم تقديم شـكوى لمحكمة العـدل العليا تفرض السـجن عـلى الرّيح كـي لا تحمـل صوتًا عربيًـا الى هنا..

اقـترب مـن بقعـةٍ تطـلُ عـلى شرق المدينـة.. غالبًـا مـا أقفُ هنـاك لأتابـعَ المـكان وأنظـرُ الى جـدارٍ فاصـلٍ بـدأ كقطعـة صغـيرة، وراح يمتـد ويكـبر كالسرطـان، وهـا قد تـم اتمامه

تقريبًا بعد عامين من العمل. من إحدى جهتيه شقٌ له عمق لا بأس به، ومن الجهة الاخرى شارع اسفلتي جديد، هناك في ذاك المكان صمت الجميع لم أسمع سوى زقزقة العصافير.. تساءلت تُرى ما موقف العصافير من قضية وطنِنا؟ تُرى هل يؤذيها الجدار عند استيقاظها صباحًا، وتجده برماديته يسخر منها كما يسخر مني كلما فتحت نافذتي الشرقية، يسابق الشمس عند تسللها ويبتسم ملقيًا تحية الصباح بحقد، ورغم أنّ غدر الجار ليس بغريبٍ علي، لا ولا الاصطباح بالجار الحقود علي بجديد، إلا أنّ عيني لم تعتد يومًا ملقى هذا الجار.. فهل تأذى وطن العصافير؟ هل تنام في جهة وترحل الى الجهة الاخرى في الصباح؟ هل يستوقفها الجدار ويطالبها بالهوية؟ هل تبذل جهدًا أكبر كي تعبره أم أنّه مجرد بناء قائم لا يعنيها؟

لو تتقن الكلام تلك العصافير التي تتقافز هنا بقربي في هذا المقطع بين شرق وغرب المدينة لأفصحت.. وقد تقول: «نحن بالسياسية لا شأنَ لنا ولا خبر، كل الاوطان أوطانُنا وهذا من شؤونِ السياسة حسبُنا، همُنا غصن ظليل، شيء من قوت اليوم، عشٌ دافئ، رقصاتُ السرب، ووداع يوم واستقبال آخر بالغناء والتغريد..»

تغيب الشمس يدعوني الظل للمسير ويسابقني في الطريق، تمرّ بنا قطة واضح عليها إمارات الدلال والغنج.. قلت

لنفسي قد يكون للقطط موقف سياسي محدد أكثر من العصافير، فقد أخبرنا أحد المحاضرين في الجامعة أنّه بعد ان أجرى بحثًا على القطط في شرقي المدينة وغربها، وجد اختلافًا في طبيعتها والأمراض التي تنتشر في وسط القطط «العربية» غيرها عن الأمراض التي تنتشر في وسط القطط «اليهودية». لعلنا إذًا نجدُ موقفًا سياسيًا داعمًا من جانب مجتمع القطط، وقد يساعدونا ضد الاحتلال أكثر من مجتمع بشري يعايشنا.. ومن يدري قد تنظم القطط مظاهرة احتجاجية إسوة بإخوانها من الحمير والاغنام القاطنة في غزة، إذ شاركوا قبل مدة بمظاهرة احتجاجية وأظهروا موقفًا بينما عجز أخوة من البشر عن كسر الصمت..

أسيرُ وظلي تعكسه ما أضيء من مصابيح.. الظل يمتد يسابقني ولست أدري لماذا هو على عجل.. وأهمس له أني على ضيقٍ وعلى أمل.. وأحارُ بنفسي وأدرك أني لست أدري.. كيف أنشدُ الوحدة لأبتعد عن صخب يومي، وحين تأتي أحبُها لحين.. وأخشاها لأحيانٍ كثيرة.. تبرع في رسم الجدران أمام غدي، في نفض ما علق في ذاكرتي من حزن وحقد وجروح أعملها الغادرون..

أسرع في سيري وكلمات تتقاذفني «حلم.. وطن.. حياة.. حب.. عمل.. دراسة.. سلام.. أرض.. أمي.. أبي.. شعبي..

مُدُنــي.. وهــم.. سراب.. حلم..».

أســارع أكثــر حتــى أقــتربَ مــن بيتــي لأتهالــك عنــد مقعــد قريــبٍ مــن أرجوحــة.. هنــاك أطفــال يســتمتعون بالتأرجح ويتناوبــون، وأنــا أنظرهم ورغبــة جامحــة بالتأرجح تعصف بــي.. انتظــرتُ.. إنه دورُهــم الآن ليس دوري، دورهــم ليعتلوا أبــواب أحــلام طفوليــة جميلة قــد تحملنــا اليهــا الأرجوحة.. بعــد أن انطلقوا حــان دوري، هناك رحت أتأرجح لســت أدري أيــن كان الظــل يقــف؟ هــل يتأرجــح معــي، أم يؤرجحني أم يجلــس على الأرجوحــة المقابلة شــارد الذهن؟.. لســت أدري.. مــا أعرفــه أني كنــت أنظر الى الســماء وأعــبّ الهــواء.. وكنت كمــا كنــت في طفولتــي أتمنــى أن تحملنــي الأرجوحــة بعيدًا لأطــير.. لأطــير وأكون كمــا هــي العصافير..

2010\5\7

هي أسمال ذاكرة

تقــتربُ بتوجــسٍ مــن الموظفــةِ في المدخــلِ لتســألَ عــن مكانِ وجــودِه.. بعــدَ أن ابتعــدتْ عــن الموظفــةِ وتقدمــتْ في الرواق باتجــاه المصعــد، شــعرت باضطراب شــديد..

دخلــت المصعــدَ وبعــد أن أُغلِــق شــقا بابِــه، تفقــدت محتوى الكيــس الــذي تحمل، ثــم أخرجت مــرآة صغيرة لتلقــي نظرة سريعــة عــلى وجهها، سرعــان مــا ألقــت بهــا في الحقيبة مع وصــول المصعــد للطابــق المقصــود. وجــدت أمامهــا رواقًــا طويــلا، راحــت تتقــدم بخطــى قصــيرة متباطئــة، تنظر الى أرقــام الغــرف أكثــر مــن مــرة لتتأكــد أنها لــم تعــبر الغرفة المطلوبــة. كلمــا اقتربت أكثــر ازداد ترددها وفكــرت بالعودة. تجــدُ نفسَــها وجهًا لوجــهٍ أمام الغرفــة المطلوبة، البــابُ ليس مغلقًــا كمــا أنــه ليــس مفتوحًا عــلى المــلأ، تمكنت مــن تمييز

obeikandl.com

بعـض الوجـوه في الداخـل، ازدادَ ارتباكهـا فابتعـدت قليـلا وهـي تحـاول أن تجد مكانًا تغيـب فيه عن أنظـار الخارجين. بعـد أن عثـرت عـلى مطلبهـا نظـرت الى السـاعة، فتنفسـت الصعـداء، إذ لا يـزال أمامهـا ثـلاث سـاعات مـن الوقـت. طيلـة عشريـن دقيقة راحـت تنهض كل خمـس دقائق لتراقب إن كانـت الغرفـة قـد فرغت، ثـم تعـود الى مقعدهـا الخلفي، تمـضي بعـض الوقت بالنظـر الى صـور محفوظـة في هاتفها النقـال، او بمحو رسـائل نصيـة قديمة، تفكـر في المغادرة ثم تقـول كلا ما دمـت قد أتيت سـأبقى.

تمـرّ نصـف سـاعة، تتجـه نحـو الغرفـة ليـس ثمـة صوت ينبعـث منهـا، تلقي نظرة سريعة مـن الباب المشـقوق فتتأكد مـن خلوهـا مـن الـزوار. تتراجـع قليـلا نحـو سـلةِ مهملات قريبـة لتخـرج باقـة زهـور مـن الكيس الـذي تحمـل، تلقي بـه في القمامـة، وتسـيرُ نحـو بـاب الغرفة مـرة أخرى.

تنظـر الى باقـة الزهـور في يدهـا وتسـخر مـن نفسـها « كم انتظـرت أن تصلنـي باقـة كهـذه منه، وهـا أنا بعـد كل شيء آتيه بواحـدة..».

يعـود قلبها ليتسـارع في نبضـه، تهتز أطـراف أصابعها وهي تدفـع البـاب، دخلت ببطء محـاذرة ألا يصـدر حذاؤها صوتًا، تنظـرُ الى سريريـن في الغرفة، وجدته ممدًا عـلى أحدهما، وعلى الآخـر عجـوز تجهلـه. رأسـه معصـوب، عينـاه مغمضتـان،

رجله اليسرى يلفها جبس... معلقةٌ برباط الى واقٍ حديدي. تستجمع قواها وهي تقترب لتجلس على مقعد قريب، واضح أنّه يغطّ في النوم فلا ترى تراقص عينيه العسليتين. تتمعن في قسمات وجهه وشعرِه الأسود تتذكر وتتعجب كيف تنقلب الأحداث والأقدار، قبل عامين فقط كادت أن تكون هي في مثل هذا الموضع بعد لقائهما الأخير. ذاك اللقاء الذي تلقت فيه كلماته كطعنات خنجرٍ في صدرها، وذهب بسنين خمس رصدتها من عمرِها لحبه بصمت، وهي ترى كل ذاك الود والحب الذي يموج في عينيه كلما التقاها.. فجأة نضب ذاك النبع وشبَ حريق أتى على كل ما كان. علمت أنّها لم تُجِد يومًا اصطناع ابتسامة كما أجادت في ذاك اليوم، وحاولت جاهدة أن تبقى بكامل رزانتها وهو يشجعها على لقاء صديقٍ له يود التعرف عليها، ويدعي أنه يقدم نصيحتَه كأخ.

لا تدري كيف مرّت تلكَ اللحظات التي تبقت من لقائهما، وجدت نفسها على الرصيفِ تبحث عن محطة للحافلة، مثقلة بصدمتها، تنظر الى الشارع ولا تراه، وعندما وقفت لتعبره مرّت سيارة مسرعة ونجت من حادث مؤكد بأعجوبة. في مساء ذاك اليوم قررت أنّها ستبذل قصارى جهدها لنفيه عن قلبها.

عامان عمرُ الحب المقتول، عامان وهي تحاول أن تبرّ

بعهدهـا لذاتهـا ولا تعلـم إن نجحـت في أن تشـفى منـه، فلم تجـرؤ أن تلقـاه مـرّة أخـرى. أتتـه اليـوم ولـم تسـتطع أن تبقـى في بعدها عنـه بعد أن علمـت بوضعه الصحـي الحرج. تتيقـظ مـن وجومهـا عنـد انتباههـا الى باقـة الزهـور التـي في حِجرهـا، تنهـض لتضعهـا عـلى طاولـةٍ قريبـة، وتعود الى المقعـد وهي تتحسـس تسـارع نبضهـا، قلبها ينبـض بهدوء، فشـعرت بـشيء مـن الطمأنينة.

فتـح عينيـه ببـطء وعندمـا راى وجههـا ظـنّ نفسـه يحلم. نطـق بعـد لحظـة: « أهـذه أنـتِ؟» ابتسـمت وقالـت: « أجل هـذه أنا».

عـاد ذاك البريـق القديـم الى عينيه وسـمعته يقـول: «يا الهي كـم انتِ طيبـة». لتشـعر بقشـعريرة تسري في جسـدها حين وضـع كـف يده اليـسرى على كفهـا الأيمن الذي نسـيته ملقى عـلى السريـر، باعـدت بكفهـا لتربت مرتـين على كفـه وتقول: «وهـل يُعقـل أن أعلم أن أخـي مريض ولا آتـي لعيادته».

باعد عندهـا بنظرِه عنها، وإذ بسـعلة حـادة تداهمه فنهضت مسـارعة لتأتيـه بـكأس مـاء، واقتربت تسـند رأسـه بذراعها وترفعـه ليشرب مـن الكأس.

هـدأ قليـلا، أنفاسـه قريبـة من عنقهـا، نظـر اليها بوَلَـهٍ، أما هـي فوجـدت نفسـها تعيـده بسرعـة الى وضعيـة اسـتلقائه السـابقة وتبتعـد. تعجبـت من نفسـها، شـعرت بقـوة كبيرة

تداخلها، سألها عن أحوالها والى ما آلت اليه أمورها، أخبرته أنها على خير ما يرام، وأنها ستسافر بعد أن حصلت على عمل في شركة أجنبية ، سأل بتعجب:ـ الى أين ؟

ـ إلى فرنسا

سأل: ـ فرنسا.. لماذا؟

ـ لقد سنحت لي فرصة جيدة للعمل

ـ حسنًا لكن لماذا تغادرين البلاد؟

هنا رأت أنّها يجب أن تكون حازمة فلم يعد من حقه أن يتدخل في شؤونها، فقالت: ـ لدي أسبابي الخاصة.

صمت... حاولت أن تغير الموضوع، راحت تسأله عن الحادث وعما حصل، وما هو وضعه الصحي؟ نظرت الى الساعة بقي أمامها ساعتان فقررت أنّه حان الوقت للمغادرة، نهضت وتمنت له الشفاء العاجل، سألها: ـ الى أين؟ ابقي.. لم يمضِ على حضورك سوى القليل، انني مشتاقٌ اليكِ..

ابتسمت كم كانت تحلم ذات يوم أن يعترف ولو لمرّة أنّه اشتاق اليها..

قالت:ـ يجب أن أكون خلال ساعتين في المطار.. آسفة يجب أن أذهب.. حمدًا لله على سلامتك.

صافحت كف يده الذي حاول أن يضغط على كفها، كان ذاك الحب الذي أنكره ذات يوم يفيض في عينيه، يدعوها

لأن تقــترب، ولــم تحــاول أن تفعل.
بهــدوء ســحبت كفَهــا مــن كفِــه، واســتدارت وهــي تقــول:ـ وداعًا
فصرخ:ـ بل الى اللقاء
ابتسمت:ـ حسنًا الى اللقاء.
خرجــت مــن بــاب الغرفــة وأغلقتــه دون أن تنظــر في عينيه. تنهــدت وبدأت تســير بخطــى وئيدة، تحسســت نبضهــا، إنه عــلى وتيرتــه، شــعرت بســكينة تداخلهــا واســتمرت تجــاه المصعد.
فجــأة رأت ممرضتين تركضان في الرواق، اســتدارت لتتابعهما بنظرهــا، لقــد دخلتــا غرفتــه، شــعرت بالخوف تســاءلت هل ألــم به مكــروه؟ هل ازداد حاله ســوءًا؟ ثم تعــود لتقول:» كلا كان باديًــا في حالــة جيــدة، لا بــدّ أنــه المريض الذي يشــاطره الغرفــة، لن أعــود..» تنظر الى الســاعة في يدها لتؤكد لنفســها «لــم يبــق لــدي متســعٌ مــن الوقــت» تســير بخطــى بطيئــة مترددة..
ســمعت صوتًــا نســائيًا ينــادي «يــا آنســه.. هــلا توقفــتِ»، تــرددت... وبعــد أن ســمعت الطلــب مــرّة أخــرى توقفــت واســتدارت، كانــت احــدى الممرضتــين بادرتهــا:» المريض في غرفــة 152»
ـ ما به؟ هل حصل له شيء؟

ـ لا.. لا تقلقـي ، لكنـه اسـتدعاني وتوسـل الي أن أعدو خلفك كـي أقول لـك أنـه.. يحبكِ

حملقت بها مشـدوهة، راحـت أفكارٌ كثيرة تتنـازع في داخلها، تـرى ماذا ألـم به؟ لماذا غـير رأيه فجـأة؟ تفقدت حـال قلبها وجدتـه ما يـزال في سـكينته، فابتسـمت وقالت لهـا:» أخبريه أن أختك تحبـك أيضًا»

وسـط دهشـة الممرضـة اسـتدارت وتابعـت سـيرها مسرعة، لـم يتبـق متسـعٌ مـن الوقت يجـب أن تـسرع، حيـاة جديدة بانتظارهـا.. قبـل أن تغـادر المشـفى نظـرت الى الخلـف وابتسـمت، اليـوم فقـط تأكـدت أن كل تلـك المشـاعر كانـت أسـمال ذاكـرة.. وخرجـت.

أيلول 2010

جدائل الألحان والحروف

(الطقسُ باردٌ بعض الشيء والسحابُ يغطي السماء منذرًا بمطرٍ قريب، تتقدم في الشارع تنظر نحو البناية التي اتفقا أن يلتقيا قربها، تبحث عنه، إنه ليس هناك، تنظر الى الخلف، لم يقترب من المكان بعد، تحين منها نظرة إلى الساعة، ما تزال هناك خمس دقائق حتى يصل.

شعرت بقطرة ماء على يدها، ثم أخرى على جبينها، رفعت نظرها نحو السماء ونظرت حولها يبدو أنّ المطر سيشرع بالهطول، فتحت مظلتها ووقفت قرب بناية كبيرة. المطر يسقطُ خفيفًا، تنظر الى ساعتها وتتساءل: «لماذا لم يأتِ بعد؟». راحت تسيرُ ببطء على الرصيف وتنظر إلى نفسها في واجهاتِ المحال التجارية تارةً وزجاج المركباتِ المصطفة قرب الرصيف تارة أخرى، تتساءل كيف تبدو؟ هل سيُدهش عندما يرى فستانها الزهري وتسريحة شعرها؟

مـاذا سـيفعل؟ هل سـيحاول أن يقبلها؟ لا لن تـترك له مجالا ليفعـل فعليه أن يسـعى كثـيرًا حتى يحصل عـلى القبلة الأولى.

نظـرت إلى السـاعة لقـد مـرت خمس دقائـق عـن الموعد ولم يصـل بعـد، هـا همـا مـا زالا في بدايـة العلاقـة ويتخلف عن موعـده ويتركهـا تقـف وحيدة تحـت المطـر تنتظـره. حينما قـررت أن تذهـب اسـترعى انتباههـا صـوت ألحـان عذبـة، راحـت تسـترق السـمع، إنه عزف عـلى آلـة البيانـو. يبدو أن أحـدًا يعـزف في البنايـة التي تقـف بقربها، هـي ضعيفة جدًا أمـام هـذه الآلة والألحـان الرائعة تشـعر بأنّ كلمـاتٍ تنطوي خلـف كل مقطـع، إنّهـا ألحـان عـلى النمـط الكلاسـيكي هل هـي لبتهوفـن أم لموتسـارت أم لباخ.. لا لم تسـمعها مسـبقًا، ولـم تسـتطع أن تبتعـد كأنمـا الألحـان تتسـلل بـين قطرات المطـر فتوشـحها وترسـم لوحة تجذبهـا نحوهـا فتمنعها من مفارقـة المكان.

تسـتفيق فجـأة مـن شرودهـا مـع إنهـاء المعزوفـة بإيقـاع مرتفـع. تتذكـر أمـرَ حبيبها الـذي تنتظر، لقد مـرت عشرون دقيقـة ولـم يـأتِ، فتسـير لتعـود عـلى عقيبتهـا ومختلـف الشـكوك والظنـون تسـاورها، لمـاذا يختفـي هكـذا؟ وكيـف يجـرؤ أن يدعهـا تنتظـر كل هـذا الوقـت ولا يأتـي؟.

تسـيرُ والحـزن يتسـلل الى قلبهـا، هـل يسـخر منهـا؟ لقـد جهـزت نفسـها ووقفـت تنتظره تحـت الأمطار ولـم يحضر،

كيـف يجـرؤ؟ هـل يسـتحق حقًـا هـذا الانتظار؟.
فجـأة سـمعت صوتًا يناديهـا، ولم تلتفـت الى الخلـف. النداء اسـتمر، تسـتدير فـإذ به يعـدو خلفها، يحـاول اسـتيقافها، وقفـت تنتظـره، وصـل لاهثًا ليجـد السـخط في عينيهـا، قال لها :
ـ اعذريني يا حبيبتي
ـ كلا.. كيف تتركني أنتظرك كل هذا الوقت؟
ـ مهـلا.. مهـلا لقد تأخرت لأننـي بعد أن أنهيـتُ عملي وأردت المغـادرة جـاء المدير وطلب منـي أن أقوم بمهمـة إضافية ولم أسـتطع أن أرفـض، أنهيتهـا بسرعـة وخرجت لكـن الازدحام المـروري أخرنـي.. أعدك أن هـذه آخر مرة
هدأت وقالت:
ـ حسـنًا عـلى أيـة حـال أنا لـم أبـقَ كل هـذه المـدة لأجلك .. كنـتُ سـأغادر مـن اللحظـة الأولى لـولا أن لفتـت انتباهـي معزوفـة رائعـة عـلى البيانو، وأنـت تعلم كم أحب هـذه الآلة فلـم أسـتطع أن أتحـرك قبـل انتهـاء المعزوفة
ابتسم: ـ لا بأس
سـارا في الطريق وبعد لحظـات رفع كفها الى شـفتيه وهمسَ: «إنّكِ رائعة»
ليأتـي لقاؤهمـا الثالـث بعـد يومـين، دخـلا مقهـى وفوجئا بوجـود بيانـو ضخـم فيـه، تجلـت ملامـح الفـرح عـلى

أســاريرها، فقــال لهــا:
ـ ما رأيك أن أعزف لك معزوفة أهديكِ اياها
نظرت اليه مشدوهة:
ـ هل تتقن العزف على هذه الآلة ؟
ـ أجل
ـ ولمن ستكون المقطوعة ؟
ـ لي من تأليفي أنا..
فــازدادت دهشــتها وعجبها، جلس عــلى المقعــد وراح يعزف، في البدايــة شــعرت أن الألحــان مألوفــة لديها وراحــت تحاول التذكــر أيــن ومتــى ســمعت هــذه الألحــان، وحين أســعفتها الذاكــرة نظــرت اليــه مشــدوهة متســائلة أيُعقــل أن يكــون هــو..؟ أهــو مــن كان يعــزف قبــل يومين؟.
عندمــا انتهــى من العــزف، نهض ليقــف قبالتها، لم تســتطع أن تتفــوه بأية كلمــة، عيناها من أتقنتا الحديث عن دهشــتها، قبــل راحتهــا وقــال:» أجــل هــذا أنــا ، أنا مــن عزف لــكِ قبل يومين وهــذه المعزوفــة هدية حبي اليــكِ..»).

هنــاك عنــد الطاولــة الصغــيرة عــلى ضــوء مصباحهــا تقــوم بطــي الورقة التــي دُونت عليهــا تلك الكلمــات وتنهض لتقف أمــام النافــذة، هــا هو الليل قــد حلّ والمطــر يهطــل. إنّها أيام تــوازي ذلك اليــوم الذي كان فيــه لقاؤهما الثانــي قبل عامين،

وهـا هو يحـاول أن يصوغ اللقـاء بقصة وخاطـرة.. لكن أين هـو الآن؟ هو يمكث في دولـة أخرى لإكمال دراسـته الجامعية وهـي في مدينـة بعيـدة عـن بلدتها من أجـل دراسـتها أيضًا، اليـوم عيـد ميلادها وهـي وحيـدة في غربتها حتـى صديقاتها اللواتـي يشـاطرنها الشـقة غـير موجـودات، لـم يحـضر لها أحـد كعكـة ويحتفل بها، وليس من يجالسـها سـوى الوحدة. توقـف المطـر عـن الهطـول ارتـدت معطفهـا وخرجـت الى الطريـق. لقـد أحب الموسـيقى وأتقن التأليف الموسـيقي، لكن قلمـا عـزف مقطوعـات للموسـيقيين، أمّـا هـي.. فإنّهـا على نقيضـه تبرع في عـزف معزوفات غيرها ويصعـب عليها انتاج وتأليـف الحـان بقواها الذاتية. سـألته ذات مرّة لمـاذا لم يتجه لدراسـة الموسـيقى والأدب..؟ فقـال بأنهما لن يكفيـاه ويوفرا لـه حيـاة ماديـة مريحـة.. وأنّه يعـزف ويكتب ليفجـر طاقة مخزونـة في داخلـه.. يقتـل أحزانـه على أوتـار آلتـه، وبعد أن التقاهـا لـم يعـد يقتـل أحزانه فقـط بـل أيضًا يبعـث الحياة والفـرح في نفسـه وهو يعـزف حبًا لهـا ويهديهـا معزوفاته. كـم حاولـت إقناعـه الاشـتراك بمعهـد معـين ونـشر ألحانه، واعتـبرت تخلفه عـن ذلك أنانيـة واحتـكارًا لألحانـه. لتلقاها ابتسـامته قائـلا:» هـل تعتقديـن يـا عزيزتـي بـأن المجتمع يجلـس وينتظـر إنتاجـي بتلهـف، سـأحتاج حربًـا وصراعًـا يـدوم سـنين حتـى تجـدي أحـدًا يسـتطيع أن يتذكر اسـمي

فقـط.. وهذا بحاجـة الى تفرغ وكمـا ترين أنا لسـتُ متفرغًا.. ثـم هل نسـيتِ الدواخل عـلى فنوننـا، والنوع الـذي أقدمه من الموسـيقى والأدب ليـس في نطـاق اهتمـام الجمهور..»

نظـرت إليـه يومهـا وقالت كلمـات ندمت عـلى قولهـا لاحقا: «أنـت تجعل أحـزان وخيبات الماضي تسـيطر عليـك الى درجة أنّـك لـم تعـد تحـاول، تتخـذ قـرارات مسـبقة دون أن تنال شرف التجربـة، وإن كان ثمـة مـا لا يرضيك في هـذه الدواخل كمـا تقـول فعليك أن تحـارب وتمنـع.. لا أن تجلـس مكتوف اليديـن مغمـض العينـين. لو فكـر الجميع مثلك لمـا وجدنا في الأجيـال الصاعـدة كاتبًـا أو فنانًـا يشـق طريقه ويـصرخ أنا هنا «

شـاهدت ضيقًا عـلى وجهه وصمتًـا يعتقد لسـانه فحاولت أن تخفف مـن صرامتها لتسـتطرد:» ربمـا التحدي الـذي أمامنا الان هـو أكـبر من ذاك الـذي كان أمـام الكتاب العظـام الذين أثبتـوا أنفسـهم في القرن الماضي مع اسـتقلال الـدول العربية، اذ كان هنـاك عـدد محدود منهـم في كل دولة وبعـد أن يصلوا الى مرحلـة النـشر بفـترة قصـيرة ينتـشر اسـمهم في أوسـاط معينـة في مجتمعهـم، ويـزداد تطورهم شـيئًا فشـيئًا ويكون الانفتـاح عـلى العالم العربي أسـهل مما نواجـه كأقلية في هذه الدولـة، خاصـة مـع تطـور أدوات ووسـائل النـشر وازديـاد المنتجـين مقابـل قلـة المتلقـين، لكن هـذا لا يعني الاستسـلام

ويجب عـلى صوتـك أن يعلو بـين الأصـوات وتنتصر..»
بقـي عـلى صمتـه، انتابهـا نـدم شـديد تلـك الليلـة عـلى ما تفوهـت بـه وتمنت لـو أنّهـا لـم تفعل خاصـة أنّـه كان على سـفر في اليـوم التـالي. حاولت أن تتحـدث في شـتى المواضيع وعـن حبها لـه لكنّـه بقـي معكـر المزاج.
هنـا تتنهـد وتسـتمر بالسـير في الطريـق وحيـدة وقلمـا تمر سـيارات أو حافـلاتٌ بقربهـا.. في يوم سـفره الـذي كان قبل عـام وقفـت أمامـه غـير مصدقـة أنهـا سـتحتمل أن تعيـش عامًـا أو أكثـر دون أن تـراه، في ذلـك اليـوم وُلـدت قبلتهمـا الأولى.. ورسـالة أبقاهـا في يدهـا طالبـا منها عـدم قراءتها الا بعـد أن يغـادر.. ليتواعدا عـلى التواصل والتغلب عـلى الغربة والفـراق.. وذهب.
بقـي يظهـر عبر برامـج المحادثـة عـلى الشـبكة العنكبوتية، وبقـي ذاك الحـب في صدريهمـا يكـبر.. يحـاول كل منهمـا الوقـوف عـلى ما يلـم بالآخـر مـن ظـروف وتغيير..
تعـود للتنهـد ناظـرة في فراغ الطريـق، هذا التواصـل لا يغني يومًـا عن اللقـاء.. لـو كان هنا.. ربما لابتسـم الآن وعـاد اليها بقصيـدة نثريـة كتلـك التـي كتبها ذات يـوم.. وسـارت نحو البناية ترددها لنفسـها..
(تعبثـين يا حلوتـي تعبثـين.. وبلهيـب النار تتلاعبـين.. حين يطغـي الخيـال عـلى دنيـاك ويقيـم... وبـين بقع السـواد..

تتراكضين.. ظنك تزدادين ابتعادًا عنها الى النور، فإذ بك تهوين الى الجحيم.

وعندما تتنظري أن تقرع زجاجَ نوافذك.. يدٌ تنشلك من الخطب العظيم.. تعبثين.. فاليد من جثث الأحلام تنسجين، والفُلكُ لا يقف حيثما ألقيتِ المرساة كيفما تصطفين).

عند دخولِها البناية سمعت صوت خطوات أحد في مطلع الدرج، توجهت الى شقتها لتفاجأ بزهرةٍ جورية حمراء وقربها علبة ملفوفة بورق زينة. نزعت الغلاف لتجد اسطوانة موسيقية بعنوان (جدائل الألحان والحروف) ويليها اسم حبيبها ثم اهداء «إلى التي فجرت النغمة والكلمة من دواخلي الى حبيبتي نسيم» وفي داخل العلبة وجدت دفترًا مرفقًا مع الاسطوانة بحيث تحمل كل معزوفة قصيدة أو خاطرة توجه المستمع الى فكرة المعزوفة.

ووسط دهشتها مما ترى، سمعت صوت خطواتٍ خلفها، لكنّها لم تستطع أن تستدير اذ سرعان ما شدتها ذراعٌ وهمسَ صوتٌ دافئ في أذنها: «كل عام وأنتِ بخير حبيبتي..».

2007\9\26

شجرة الزنزلخت[1]

أغرانـي انسـجام الهـدوء وصوتهـا، وهـذا النسـيم العليـل في أواسـط آب أن أجلـس الى أوراقـي وكتبي وأعود لأتسـامر معهم وأقـضي الوقت.. وكنـت بين الفينـة والأخرى أراهـم يحدقون بي جميعهـم.. أحـدًا منهـم لا يعلـم مـن هـذه الفتـاة.. كل منهم يجلـس مقتنعًـا بإطـاره ويحـدق بي مـن خلـف الزجاج.. وأنـا أنظـر اليهـم وأبتسـم، وأتنـاسى وجودهـم في بعـض الأحيـان.. بالـكاد أعـرف شـيئًا عنهـم.. لكـن قدّر اللـه لي أن أجلـس في تلـك الغرفـة التـي جعلتهـا متحفًا لهـم، كلما عدت الى قريتـي.. أحيانًـا نتبـادل الأحاديـث السريـة.. ونسـتمع أحيانًـا الى أخبـارٍ تصـل مـن مذيـاع عمتـي.. وأحيانًـا يبقى كل منّـا عـلى صمتـه، ننتظـر.. ربمـا الفـراغ.. أو قـدوم زائرٍ جديـد.. وربمـا ننتظر أن نسـمع صوتهـا وأوراقهـا تراقص النسـيم فيقطـع عـلى الحـارة صمتها..

1 شجرة الزنزلخت ـ شجرة زينة ثمارها صغيرة ومدورة.

obeikandl.com

هنا الحـارة القديمـة حيث يخبرنـي معظم سـكان القرية أنّه كانـت بينهـم وبيننا جـيرة قديمة قبـل أن يترك بيتـه ويبتعد الى منطقـة أخـرى.. وهنـا أمـام بيتنـا كان جـزء من السـوق القديـم الـذي أغلق أبوابـه منذ عشرة أعـوام.. وهنـا كنا نحن أيضًـا أطفال هـذه الحارة..

أمّـا اليـوم حوانيـت حيّنـا أغلقـت.. ونحـن كبرنـا، فافترقنـا ورحلنـا.. لـم يبق من آثار تلك الأيام سـوى شـجرة الزنزلخت قـرب بيتنا..

ولهذه الشـجرة قصـة ولادة غريبة.. إذ وُلدت إثر حروب شـلة حارتنـا مع شـلةِ حارةٍ أخـرى، أتوا يريدون أن يسـيطروا على أماكـن لعبنـا، فصرنـا نقطـف ثمـار الزنزلخـت من شـجرةٍ شرقـي الحـارة نملـؤ بهـا جيوبنـا ونأتـي الى موقـع المعركة قبالـة بيتـي لنقصفهـا عليهـم.. وغالبًـا مـا كنـا ننتـصر ونجعلهـم يرحلـون، لكـن أحـدًا مـن الكبـار الذيـن سـمعوا بحروبنـا تلك لم يطلـق علينا لقـب أطفال الزنزلخـت. ويبدو أن عـددًا مـن الثمـار سـقط في حـوض زهورنـا اثنـاء تلـك المعـارك.. وكـبرت الثمـرة لتصبح شـتلة واشـتدّ عودهـا عامًا بعـد عـام.. لكنّها بقيـت موقع وعيـد، فكلما التقى بنـا جارنا ينصـح أمـي بقطعهـا لأنّها تجلب سـوء الحـظ، وكلمـا زارنا الخريـف تكتـسي الأرض بأغصانهـا وأوراقهـا فيـزداد وعيـد أمـي باقتطاعهـا.. وتؤجـل ذلـك للعـام التالي..

تركت قريتـي وانتقلـت الى منطقة أخـرى.. وصرت كلما أعود أجدُ الشـجرة تكـبر ومعها يكـبر وطنٌ حديـث للعصافير..

عـشرة أعـوامٍ انقضـت منـذ أن رحلنـا جميعًـا، شـلة الحارة وأصحـاب الدكاكـين. ولـم يعتد أصحـاب الزيـارات المتباعدة لحيّنـا هـذا الهـدوء.. لم يسـمع أحـد منهم أناشـيد الشـجرة وغنـاء العصافـير.. هـذه الشـجرة التـي أصبحـت أجمـل مـا تركـت طفولتـي.. وبقيـت حبـوب الزنزلخـت تطـل عليَ تذكرنـي بانتصـار قديـم كان لنـا ذات يـوم..

فقـررت أن قـرار قطعهـا أصبح غـير قابـل للتنفيذ ولـم أعِر وعيد أمي للشـجرة قبـل يومـين اهتمامًا، فقد اعتـدت الوعيد. وبينمـا أنـا منسـجمة بأفـكاري أتبـادل النظـرات أحيانًا مع أجدادي قاسـم وفريد ومحمد ونجيب وأسـعد وحسـين.. وأقرأ في كتبـي، راحت أناشـيدُ الشـجرة تغيب، وأصـوات العصافير تبتعـد.. لـم يكـن هذه المـرّة صـوت المذيـاع يعلن عـن وقوع ضحايـا أخـرى في غـزة أو إغـلاق في القـدس.. هنـاك صـوت آلـةٍ كهربائيـة، احـترت في البداية ما هـو نوعها؟ واسـتغربت مـاذا يفعـل جارنـا الآن..؟ وحينمـا ارتفع صوت شيء سـقط، هببـت راكضـةً، رأيـت فرعًـا كبـيرًا قد سـقط مسـجى قرب أمِـه الشـجرة، العصافير ابتعـدت.. وأنا واقفة هناك اسـتجمع بقايـا صوتـي لأصرخ بصاحـب المنشـار:» ابتعـد.. ابتعد.. لا لن تسـقط هذه الشـجرة..

لن تسقط شجرة الزنزلخت».

2011\8\20

وميضٌ عند الهاوية

نظـرتُ اليـه، فألفيتـه عـلى حالـه.. مـا زال يرسـم، اقتربـتُ فوجـدت أن أسـلوبه في الرسـم قـد تحسـن. نظر الي وابتسـم بأمـلٍ هامسًـا «سـتعود..».

عندمـا حـضر الي في ذلـك اليـوم المشـؤوم مـن حياتـه كان في حالـة يرثـى لهـا، انفجـر بالبـكاء وراح يـصرخ «أخذوهـا.. أخذوهـا»، رحـت أحـاول التهدئـة من روعـه، وأن أفهـم ماذا حصـل. لكـن بعـد أن هـدأ أخفـى وجهـه براحتيـه وصمت، وبعـد أن طال صمته لسـت أدري كيف خطـر لي ذلك الخاطر فقلـتُ له: «ارسـمها..».

بعـد أيـام كانت وسـائل الاعـلام كفيلة بـأن أفهم مـا حصل، ولكـن غابـت عـن ذهني تلـك الكلمـة التـي قلتها لـه محض صدفـة، الى أن سـمعت بعـد مـدة زميلاتـي مـن المعلمـات في

obeikandl.com

المدرسة يتحدثن عنه قائلات أنّه صار يستغل أوقات الفراغ بين الحصص للرسم، وأثناء الحصص يبقى شارد الذهن.. ذهبت لأراه اذ لم أعلم عن تغير أحوالِه بعد انقطاعه عن الحضور إليَّ لتلقي الدروس الخصوصية.

كان جالسًا الى مقعده منكبًا على رسمته، وعندما اقتربتُ، رفع نظره نحوي وسألني: «أهي جميلة؟»، أومأتُ برأسي علامة الإيجاب، ليعود بعد لحظات ويؤكد أنّها لا بدّ وتعود. رثيتُ لحاله ولم أستطع أن أطلعه على هواجسي وخشيتي من عدم عودتها. استمر بالرسم وبقي حتى نهاية العام الدراسي يأتي الي ليطلعني على لوحاته..

أدركتُ مدى حبه لها فقد كانت تلك الأرض الواقعة قريبًا من قرية سلوان متنفسًا له ولعائلته، قضى طفولته بين أشجارها وغرس عددًا من أشتال اللوز والليمون في رقعة خاصة به منها، كان يحدثني عنها ببهجةٍ يتابع الاشجار ويقارن طول قامته بطولها، وفجأة ضاع كل شيء حينما فشلت عائلته بالتصدي للمستوطنين الذين حضروا بعتادهم وسلاحهم واستولوا عليها.

أخبرني أنه يتسلل أحيانًا اليها في الليل لينظر الى أشجاره ويطمئن عليها، لكنّهم رأوه ذات مرة وأطلقوا النيران عليه ونجا بأعجوبة.

انتقل من المدرسة مع إنهائه المرحلة الابتدائية في ذلك

العـام، وانقطعـت اخبـاره عنـي.
بعـد بضـع سـنوات مـررت الى حـوش الفـن الفلسـطيني في شـارع الزهـراء في القـدس، كعادتي لأطّلع على معرض رسـم افتُتـح هناك، وعندما دخلت شـاهدت رسـوماتٍ شـعرت أنّها مألوفـة لـدي ولفتـت انتباهـي لوحـة كبـيرة تتوسـط إحدى غـرف المعـرض، ومـا ان اقتربـت منهـا حتـى أتانـي صوتـه الـذي تغـير : «ما رأيـكِ أهـي جميلة؟»
ـ «إنها رائعة..»
ابتسـم، بقيـت عينـاه الحالمتـان تتجهـان الى لوحتـه ليقـول بـذات الثقة: «سـتعود..»

أيلول 2011

وهم قصيدة

دقيقتـان.. والنبـض في صدرهـا يزداد.. تشـعر بقشـعريرة.. أو بتنميلـة في أطرافهـا.. ويسـقط مـن عمـر الانتظـار ربـع دقيقـة.. تتذكـر خلالهـا قصيدة، تبحـث عن إلقائهـا بصوت شـاعرها على شاشـة الهاتـف النقـال.. عمر القصيـدة أطول بدقيقة مـن عمر الانتظـار المتبقي. ستسـمعها.. لعلها تعزيها بمـا لاقى صاحبهـا يـوم كتبها، حـين خانه انتظـاره ورفض الانتحار.

ويأتيهـا صـوت درويش تؤكـد كلماتُه ملامحَ خيبة تخشـاها، يـوم خالـف حلمـه الموعـد فقـال: «لـم تـأتِ قلـتُ ولـن.. إذًا سـأعيد ترتيب المسـاءِ.. بما يليـق بخيبتي وغيابها..» تتسـاءل مـا الـذي سـيليق بخيبتها هـذا الصبـاح؟.. إن هي لـم تلقه.. كيـف سـترتب ذاتَها، وبأيِ أملٍ سـتقنع نفسـها.. إن فشـلت

للمـرةِ الخامسـةِ في العثـورِ عليه.
ويوقظهـا الشـاعر في القصيـدة:» قلـتُ: لن تأتي» قـد فعلتها هـذه القصيـدة في مـرة سـابقة، وجهزتهـا لاحتمـالات خيبة، وصـدق يومهـا حـدسُ القصيـدة مثلمـا صـدق حدسُـها.. أيمكـن أن تفعلهـا القصيـدة مرة أخـرى..؟
تتبقـى مسـافة قصـيرة.. لتهـز رأسـها، لا لـن تُعـدَّ قلبهـا لاحتمـالات الغيـاب.. تنظـر الى المرآة وتبتسـم، تنظـم خصلة مـن شـعرها، وتؤكد لنفسـها.. قد آن للشـهور الممتـدة بينهما مـن اختزال.
تصغـي لهمـس الكلمـات عـبر السـماعة المثبتـة عـلى أذنها.. احتمـالات اللقـاء تتسـرب من بـين الأبيـات وتعيـدُ القصيدة كل أشـياء الاحتفـال، وكل احتمالات الفـرح الى أماكنِها، تفضُ عنهـا زينتهـا، وتقبـعُ بين ذراعـي شـاعر عذّبه تمهـل اللقاء، ففضَ عن جسـده حـزام الانتظـار وجلس القرفصـاءَ مرتاحًا يكتبهـا، ليطلعهـا هـي عـن خيبتـه ذات مسـاءٍ، حلـم فيـه وفشـل.. ليؤكد لهـا «لـن تأتي..».
تـُوقِفُ بسرعة همس الشاعر عبر الجهاز..
قريبًـا عـلى بعد أمتـارٍ قليلة عن المـكان تركـن مركبتها، تنظر حولهـا وتبتسـم حـين تعثـر عـلى مركبتـه في المـكان، وتزول بعـض الـشيء احتمـالاتُ الغيـاب. تلقـي نظـرة سريعـة على المـرآة، تلملم أشـياءَ قليلـة وتسـارع بالنزول.. قد حـان لعمر

الانتظـار أن يتوقـف. تغلـق باب السـيارة بسرعـة، فمنذ زمنٍ لـم تـرَ عينيهـا في عينيـه.. ولم يعد في هـذه اللحظـة القصيرة الفارقـة مـن متسـع لفواصل زمنيـة صغيرة.

جالسًـا كفـه بـين راحتيهـا معلقة، تشـتد عـلى أناملِهـا فيما تنظرهـا عينـاه لحظة وتغيب عنهـا، لتحتمي شـفتاه من وزر الـكلام بالصمـت.. واقفـة بجانبـه.. ترتـب أناملـه في كفها.. وتعيـدُ البحـث في عينيـه وفي شـفتيها عـن كلمـات.. يعاوِدها صـدى القصيـدة «لـن تأتي..»

تبتسم وتقترب..: «أين صارت عيناك؟».

وحـين اسـتدار.. راح يضيـع همـس العبـارة، وراح وهج من عينيـه يسـتبيح الأبيات.

2012\1\9

خيمة..

وقفتُ أحدقُ فيها، أتأملها ومختلف من المشاعر الحزينة تتراكم في داخلي، أمّا هي فقد وقفت بقربي نظرت اليها وابتسمت، وشعرتُ بشيءٍ من الاعتزاز في نظرتها..

أحدق في هذا المعرض النموذجي لها.. خيمةٌ بيضاء.. بل مخيم كبير.. أتخيل مختلف مخيمات شتاتنا الفلسطيني على أرض وطننا وفي خارجه من مخيم جنين، شعفاط، اليرموك، صبرا، شاتيلا، النهر البارد.. والقائمة تطول وتطول.. ما بين السواد والحزن الذي يغطي أقمشة المخيم البيضاء، لاحت ابتسامتها..

رحت أتأملها بطرف عيني، هذه الشّابه الشقراء، البيضاء، التي لا أعلم من أين أتت؟ من هولندا، أم من بولندا، أم من روسيا؟ لماذا لا تقدر مشاعري وتقف بهذه النظرات

قربـي.. ثـم حولتُ نظـري عنهـا، وعـن المخيم لأنظـر حولي، فأفقت مـن شرودي واسـتدركت..

لقـد ظلمتها، لماذا أسـخط على هـذه الحسـناء؟ ألا أدرك أين أقف الآن..؟ إننـي في الجامعـة العبرية ـ جبل المشـارف، وهل يُعقل أن ينصـب هنا مخيمٌ رمـزي لذكرى نكبتنـا..؟ بالطبع لا..

هنـا يحمـل المخيـم معنى آخـر.. الخيمـة هنا تظهـر الاعتزاز والمطالبـة بالحقـوق الاجتماعيـة، الخيمـة هنـا ذهـب اليهـا أصحابُهـا قبـل أشـهر، بمحـض إرادتِهـم وأقامـوا فيهـا في مراكـز المـدن في تـل أبيـب وحيفـا وأشـدود وغيرهـا.. إنّها لا تشـبه الخيمة التـي في ذاكرتي.. ولا تقصد ذلـك رغم بياضها، كلا إنّهـا تحمـل رسـالة جديدة..

اسـتدرتُ لأمضي لشـأني وصادف أن اسـتدارت الفتاة أيضًا.. فاصطدمنـا، وتعلقـت نظراتـي بكوفيـة تحيـط عنقهـا، هي ليسـت مثـل كوفيتـي.. إنهـا تشـبهها، لكـن هـذه لـن تغيظ شرطيًـا أو جنديًـا.. هذه الكوفيـة الملونة مسـالمة، مثل الخيمة الاجتماعيـة اللطيفـة، هنا..

حدقـتُ في عينـي الفتـاة رأيـتُ شـبح بسـمة، وفيمـا رحـتُ أحـاول ردَّ دمعـة عـن عينـي.. قالت: «سـليخا»، وسـارت كل منّا في مسـار..

2011\12\7

عودة من الغياب

تفتح الباب وتدخل ببطء.. كم هي متعبة بعد يومٍ من العمل الشاق.. الأنوار مطفأة، لكنّها رأت سيارتها هنا، لا بدّ أنّها في غرفتها. تستدير لتغلق الباب خلفها، يأتيها صوت ضحك مرتفع.. تتجمد للحظة تُرى ماذا أصابها..؟ تسارعُ نحو الغرفةِ.. تفتح البابَ بسرعة لتطلق صرخة بفزع.. ها هي ابنتها مرة أخرى وسط بقعة من الدماء.. تركضُ نحوها، فتستوقفها الأخرى مشيرة الى النافذة:» لقد هرب من هناك..».

* * *

تخرجُ من الكلية بخطواتٍ وئيدة.. حدس بداخلها يدفعها لأن تذهب الى المنزل.. من يدري ماذا يمكن أن يحصل إن تغيبت عنه أكثر؟ ثم انّها لم تعد تتمكن من التركيز

obeikandl.com

في المحاضرة، خاصة أن صديقتيها الوحيدتين في الصف تبدوان غير مهتمتين بها، لم يعد قلقُها يعنيهما.. حتى أنّهما بالكاد تسألان كيف الحال؟

تفتح باب السيارة لتدخل، لكنّها تتوقف للحظة، تنظر حولها.. لا أحد يراقبها الآن. القلق لا يفارقها.. تدخل ببطء.. تنصت.. وتنظر في المرآة الى المقعد الخلفي.. فلا ترى أحدًا.. تدير المفتاح وتشغل المحرك وتنطلق.. تُرى هل تمكن أحد من الدخول الى البيت..؟.

يعود تركيزها الى المقعد الخلفي إنّها تسمعُه يتنفس.. بل وتشم رائحته.. تصل الى شارة ضوئية حمراء، تتوقف.. ما زالت تشعر بوجوده.. لا تجرؤ على الالتفات الى الخلف. تُرى الى متى سيستمر بملاحقتها..؟ لماذا لا يريد أن يرحل عنها..؟ تتحول الشارة الى اللون الأخضر، تدوس بسرعة على دواسة البنزين نحو المنزل.

تركن السيارة بسرعة، تقفز خارجة منها ولا تحاول النظر الى المقعد الخلفي. تسرع بالصعود الى البيت.. تفتح الباب وتوصده، تشعل الأنوار وتبدأ بالمرور على الغرف، غرفة تلو أخرى.

لا أحدَ هناك تشعر ببعض الراحة.. تدخل الى غرفتها.. تستلقي على السرير.. فجأة تسمع صوت تنفس، تنهض فزعة.. صارخة: «أين أنت؟»

تستجمع أنفاسها لتستطرد: «لماذا تبعتني الى هنا؟ ماذا تريد مني؟»

لكنّه لا يظهر.. تقول: «حسنًا أنا سأريك..» تنهض عن السرير، تسارع الى المطبخ تأخذ سكينًا وتعود الى الغرفة..

ـ أين أنت؟ أين تختبئ؟ أعلم أنك هنا؟ لقد شعرت بذلك ولذا عدت الى البيت..

تمرّ دقيقة تسمع التنفس، ولا يظهر تصرخ: ـ أنا سأريك

تخلع سروالها.. السكين ما تزال في يدها.. تنظر حولها، لم يظهر بعد لكنّه هنا.. هي متأكدة من هذا..

تمرّ بالسكين على عضلة فخذها، ليمتد جرح طولي يتجاوز العشرة سنتيمترات والدم يبدأ بالتدفق.. تنظر الى دمها بذهول.. تحاول أن تبحث عن صوت أنفاسه، فلا تسمعه.. تنفجر ضاحكة: ـ» لقد ذهب.. لقد ذهب.. لا بدّ أنه غافلني وقفز من النافذة».

* * *

تنظر اليها في اكتسائها ثوبًا أبيض.. وتشرد بعيدًا، تسأل نفسها:» لماذا علينا أن نعاني منه حتى اليوم..؟» تسمع صوتًا بقربها فتنظر، إنّه الطبيب.. يبادر بالسؤال:ـ أهي ابنتكِ ؟

ـ أجل

تشعر أنّها في عالم بعيدٍ عمّن يحيطها، تحدق بها، وبها

فقـط، ها هـم بأرديتهم البيضـاء يقفون قريبًا منهـا يؤكدون أنّ ابنتهـا هـي مـن آذت نفسـها.. وانّ هـذا النوع مـن الأذى يمنحها شـيئًا مـن الفـرح الداخلي.

يطـلّ أحدهـم مـن الخلـف ويقـول: ـ حالتهـا هـذه المـرّة أصعـب مـن المرّة السـابقة.. لـم تعـد الأدوية السـابقة تكفي سـنضيف نصـف مليغـرام كسـناكس وخمسـة مليغرامـات زيبركسـا للعـلاج وقـت الحاجة.

يقـول آخر:ـ الوضـع النفسي يـزداد سـوءا.. تتخيـل أنّ أحدًا معهـا في سـيارتها أثنـاء القيـادة، لقـد أخبرتنـي بهـذا في الفحـص السـابق.. وأعتقـد أنّـه والدهـا.. لكنّهـا لا تعـترف، هنـاك أمـر ترفـض أن تقولـه بهـذا الشـأن.

تهـز الأم رأسـها سـاخرة وتتذكره بـأي حال مـزرٍ كان يعود كل ليلـة بعـد أن أدمـن الكحـول.. كم عانـت هـذه الفتاة من وجـوده، وكيـف طردته هي آخـر مـرّة.. وطالبتـه بالطلاق.. نظـر اليهـا وهـو يترنـح ورفـع اصبعـه يلـوحُ بـه: «راح أرجعلكم..»

وها هو يعود ويعود..

2012\5\5

فوق الركام وخلف الدخان

يوقعها البرد والليل في أسئلة كثيرة.. «هل تكفيهم هذه الأغطية؟ ماذا يتستر خلف النافذة..؟ ومن يتخفى خلف الجدار الذي تستند اليه؟"

وتوقعها القنابل في فخ سؤال ملح.. «هل ستراهم غدًا..؟"

تنظر اليهم، أخيرًا تمكنوا من النوم.. تباغتها رغبة في البكاء..

يدوي صوتُ انفجارٍ بعيد.. ويتقلب الأطفالُ في الفراش دون أن يستيقظوا، فتحمد الله.

تتساءل هل تبقى شيء على ما كان عليه من حيّها القديم..؟ شجرة النخيل الأخيرة التي بقيت صامدة هناك سقطت في الحرب الأخيرة.. ومعظم أماكن طفولتِها قد تغيرت إمّا بفعل القاطنين أو بفعل الحروب.. كان هناك سورٌ حجري

obeikandl.com

قديـم اسـتخدموه كبرج للمراقبـة، في طفولتهـم.. أخبروها أنّه قـد سـقط منـذ يومـين.. كانـت تحبـه كثـيرًا وتشـعرُ بفرح شـديد كلمـا تسـلقته ووقفـت تدعـو أترابهـا لخطـة جديدة للّعب..

فجـأة يرتفـع صـوتُ دويٍ شـديد تهتـز عـلى أثـره أركان الغرفـة، فيقفـز الأطفـال مـن فراشـهم فزعـين..

يتشـبثون بثوبها وبجسـدها المنهـك.. ويعـود صغيرُها محمد ابـن الرابعة إلى سـؤال لا يكف عن طرحه:» يُمـا..! ويمتى راح نمـوت؟» تشـدّه الى صدرهـا، تحـاول بجهدٍ حبـس دموعها، تعـض على شـفتها السـفلى وتتذكر..

يـسري الخـوف في أوصالها.. تغمـضُ عينيها وتنتظـر أن يمرّ ملَـكُ الموتِ سريعًـا ويرحل تـاركًا إياها وصغارها بسـلام..

ألا يكفيـه مـا أخـذ منهـا قبـل نحـو أربعـة أعـوام..؟ حينما وقفـت تنظـر الى خيطـان السـترة الزيتيـة التي حاكتهـا له.. ويسـألونها أهـذا هـو..؟ وتهـزُ رأسـها بطريقـة آليـة فـلا يفهمـون أتجيبهـم بنعـم أم لا..؟ دون أن تتمكـن مـن نطـق كلمـة واحـدة، كيـف تعـترف أنّ زوجهـا وحبيبهـا صـارت عنوانـه تلـك الخيطـان الصوفيـة؟!.

تنهـار أمـام الـركام الـذي كان بيتهـا، تنتظـر الرجـالَ وهم يرفعـون ويقلبـون الـردم الى أن ظهـرت يدُ صغيرتها سـوار، فقامـت كالمجنونـة تمسـكها وتقبلهـا.. تحاول عبثًـا أن تقنع

نفسها أنّ هذه البرودة في الجسد ليست حقيقية.. هي محض صدفة، لا بدّ أنّ طفلتها ما تزال على قيد الحياة.. تُزال القطعة الكبيرة من الردم وتنكشف عن سوار وأختها ملاك.. الطفلتان شاحبتان مثلما لم تعهدهما من قبل، وما تزال عيون ملاك مثبتة على الدمية الراقدة بقربها.

تنظر بذهول، تتساءل أهو كابوس.. أم ماذا؟

تسمعهم يقولون:» لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنّا لله وإنّا اليه راجعون..»

تصرخ: «لا.. لا بناتي بعدهن عايشات». تهزُّ جسديهما الصغيرين.. لكن عبثًا فعلت.. لم تنمّ أي حركة عنهما.. بقيت متجمدة قربهما للحظات تحاول أن تفهم ما الذي حصل..؟ لم تتخيل للحظة عندما ذهبت لتعود أمّها في بيت حانون مصطحبة أبناءها الثلاثة هؤلاء...انّها المرّة الأخيرة التي ترى فيها صغيرتيها..

تضم أطفالها إليها.. تنزلق الدموع على وجنتيها.. ليعلو صوتٌ مرعب ويسقط زجاج النافذة. تندفعُ سحبٌ من الدخان الى الغرفة، ليصرخ محمد سائلا:» يُمّا..! راح نموت إسا؟“

تنهمر الدموع من عينيها ويعلو بكاء الصغار المرتعدين.. تزداد عتمة الغرفة.. فيتجه نظرها إلى أعلى وتتمتم «يا رب».

راح الأطفـال يسـعلون.. تسـمع صـوت أقـدام تجـري في الخـارج، وصـوتٌ منخفـض لأزيـز طائـرة، تفتـح البـاب، لتجـد الغبـار والدخـان يمـلآن الأجـواء.. تعـاود النظـر الى صغارهـا وتداخلهـا الحـيرة.. أتخرج بهـم الى مـكانٍ آخر..؟! فقـد يختنقـون هنا.. ولكـن ماذا لـو لاقتهم قذيفـة جديدة..؟ تعاودهـا ذكـرى زوجها والصغيرتـين.. تشـعر أنّ لا مناص.. مـا مـن ملجـأ.. لـم يبـق لهـا أيّ شيء سـوى أنْ تمـرّ هـذه اللحظـات سريعًـا.. تشـعر بقواها خائـرة.. لم تتمكن سـوى مـن الـصراخ « بكفـي.. بدنـا نعيش..“

يرتفعُ صوتُ دويٍ جديد..

ولم يسمعها أحد..

تشرين الثاني 2012

opelkandl.com

رهبة البناية

تنظـر حولهـا.. جميعهـم هادئـون، لا أحـد يصـدر صوتًـا.. الـرواق أنـواره خافتـه.. أبناؤهـا لـم يأتـوا اليوم..
تنهـض عـن السريـر وتمـضي لتلقـي نظرة نحـو الـرواق، لا أحـدَ هنـاك.. تعـود لتجلـس عـلى حافـة السريـر تتسـاءل: «أحقًـا لـم يعـودوا يكترثـون لأمـري..
هل حان الوقت..؟»
تتخـذ قرارهـا بسرعـة، تجمـع أشـياءها القليلـة في كيـس، تسـتبدل سـترتها.. وتسـير بحـذر لئـلا توقـظَ أحـدًا. تطـلّ عنـد البـاب مـرة أخـرى.. لا أحـد في الـرواق.. تسـير مسرعة تظهـر أضـواء قليلة مـن النوافذ فالبحـر ابتلعه الليـل.. تنزل الأدراج مسرعـة وتسـير بمحـاذاة البنايـة القريبـة فهي تذكر تمامًـا أنّ المدخـل من هناك.. الحارسـان منشـغلان بالحديث، ولا يهتمـان بمـن يخـرج، فالداخلون يثـيرون الاهتمـام أكثر.

سارت عبر البوابة اللولبية اجتازتها لتنعطف يسارًا سارت خمسين مترًا ولم يستوقفها أحد فتنفست الصعداء.. وسارعت بقطع الشارع.

* * *

خرجتُ من عملي في المستشفى منهكة وسرتُ نحو منزلي في البناية القريبة، الساعة الثامنة مساءً اقتربت من المدخل ونظرتُ الى واقي الدرج الملتوي، وباب غرفة مهملة تقع قبالة الأدراج وشق في الباب يزيد من وحشة المكان. قرب الباب تقع أزرار الكهرباء لاشعال النور.. اقتربت لأضغط الزر، فحانت مني نظرة الى داخل تلك الغرفة، لم أر شيئًا في الظلام وكنت على رأيي أنه يمكن أن تُخفى فيها جثة لبعض الوقت حتى ينتبه اليها أحد. قلت هذا قبل أيام لزميلتي التي تعمل معي وتشاطرني السكن في المنزل فطلبت أن أتخلى عن أفكاري البوليسية، وأن لا أشغل منصب بوارو أو شارلوك هولمز[2].

أضأت الأنوار وصعدت الى الدور الأول محاولة نسيان كلام (ناتي) كله.. لا أعلم من أين أتتنا هذه الجارة؟ تعرفنا عليها مصادفة وجاءت لزيارتنا قبل أسبوعين، وبعد أن تعرفت علينا راحت تشرح لنا عن سكان البناية وبدأت تقص علينا قصصًا عجيبة، ثم أخرجت ورقة وراحت ترسم المنازل في الدور الرابع حيث شقتنا لتحدد لنا تمامًا

2 بوارو وشارلوك هولمز – المحققان البوليسيان اللذان استخدمهما كل من الكاتبين الانجليزيين أغاثا كريستي وارثر كونان دويل (على التوالي) في رواياتهم.

أيــن يســكن «الرجــل المرعب».
قالــت لنــا إنّــه طويل، ضخــم ولــه بطن كبــيرة جــدًا.. وجهه غريــب وكان يقــرع الباب على إحــدى جاراتنا الشــابات ويثير خوفهــا، وصــادف مــرّة أنّهــا وجدتــه أمام بــاب بيتــه عندما كانــت صاعــدة الى شــقتها، وفي لحظــة مرورهــا بــه ارتفــع صــوت تنفســه بطريقــة غريبــة فأسرعــت الى شــقتها لتدخل وتقفــل بــاب منزلهــا، وما لبثــت أن رأتــه من العين الكاشــفة قادمًــا يقــترب مــن البــاب، نظر نحــو العــين في البــاب وبقي لعــدة لحظات أصــدر خلالهــا أصواتًــا غريبة..
وادّعــت أنــه فعلها مــرّة أخرى وجــاء ليقف أمام البــاب.. فهو يختبــئ خلف بابِــه وينظر الى من يمــرّ في الرواق.
لا أنكــر رغــم الشــجاعة التــي أتحــلى بهــا أنّ كلامها أثــرّ علي وعــلى صديقتــي كثيرًا وأثــار خوفنا لمدة أســبوع، الى أن التقينا بالمســتأجر الســابق لشــقتنا وأعلمنا أنّ (ناتي) ليست طبيعية بكلامهــا وتصرفاتهــا وأن لا نأخــذ كلامها عــلى محمل الجد.
سرتُ أصعــد الى الــدور الثالــث وأنــا أؤكــد لنفــسي أنّ كلام (ناتــي) هــراء في هــراء.. حتــى أننــي لــم أعلم كيــف فرضت نفســها علينــا، لكــن سرعان مــا قلت ربمــا كان هــذا نوعًا من طابــع التعايــش الــذي تفرضــه حيفــا. عنــد الطابــق الثالث انطفــأت الأنــوار التــي تعمــل بصــورة مؤقتــة عند إشــعالها، وســاد ظــلام دامــس.. نظــرتُ الى رقــم الشــقة التــي أقــف بقربهــا فرأيــت الرقــم 20 ، وجزعــت..

عـادت (ناتـي) لتتربـع عـلى ذاكرتـي قالت أنّهـا كانـت عائدة مـن السـوق وتحمـل الكثـير مـن الأغـراض، صعـدت الأدراج وسـمعت صـوت خطـوات في الطابق السـفلي.. أُطفئـت الأنوار فجأة وهي بقرب شـقة عشريـن فوضعت الأكيـاس على الأرض وقامـت لتبحـث عـن زر الكهربـاء حين سـمعت صـوت لهاث خلفهـا، تجمـدت مكانهـا، ثم سـمعت أصواتًا غريبـة.. أسرعت تضغـط الـزر وحين اسـتدارت صرخـت فزعة بأعـلى صوتها.. قالـت إنّـه عجـوز روسي طويـل جـدًا يعتمـر قبعـة سـوداء طويلـة غريبـة الشـكل.. ولهـا مقدمـة تظلـل عينيـه، وقـد اسـتؤصلت أوتـاره الصوتيـة، فينـم عنـه صـوتٌ مخيـف.. أشـعلتُ الأنوار وسـارعت الى الدور الرابع وهـو الأخير.. سرتُ فيـه ركضًـا نحـو شـقتي فقـد كان هنـاك عطـل كهربائـي والمصابيـح لا تعمـل في هـذا الطابق. سـارعت بدخول شـقتي وإغـلاق بابهـا جيـدًا، ثـم نظـرت مـن العـين الكاشـفة الى شـقة الرجـل المخيـف الذي يسـكن طابقنـا، لأراقـب إن كان سـيخرج. ولـم يحـدث هذا، فقلـت لنفسي يـا لي مـن مخبولة كيـف أصدق واحـدة مجنونة مثـل (ناتي)؟!.. يجـب أن أعود لأتـصرف كما كنـت قبـل أن أسـمع كلامهـا الفارغ.

نحـو الحادية عـشرة ليلا لسـت أدري ما الذي دفـع صديقتي أن تـترك أوراقهـا وتنهض لتنظر من العين الكاشـفة..

ثـم أتت الى غرفتـي تقول لي:ـ تعـالي انظري يوجد سـلم أمام بابنا.

حملقتُ بها:ـ ومن الذي سيصعد الى السطح الآن..؟
ـ لا أعلم
نهضت لأنظر من العين بعد أن أشعلت مصباحًا خارجيًا يتبع لشقتنا، فرأيت السلم منتصبًا أمام الباب. قلتُ لها:»ـ سأفتح الباب». ولم أنتظر جوابها، فتحت الباب، ونظرت الى أعلى حيث توجد فتحة في السقف للصعود الى السطح وعادة تكون مغلقة، لكنني وجدتها مفتوحة المدخل، ما أثار استغرابي حذاء منزلي نسائي أمام السلم، حقيبة يد نسائية وكيس متوسط الحجم قرب السلم.. تساءلت تُرى ماذا يمكن أن يكون هذا..؟
بدا الأمر غير طبيعي.. لكنني كنت قد قررت أنني أريد أن أحيا بصورة طبيعية في هذه الشقة حتى تنتهي فترة عملي في هذا المكان، وقلت لنفسي لا يجب أن نحمّل الأمر أكثر مما يجب، ولا داعي الآن للتحليلات والتحقيقات، أقفلت الباب وعدت الى غرفتي، ببرود أعصاب أثار صديقتي، خاصة عندما سمعنا صوت حركات وضحك على السطح وأنا بقيت مستمرة في مطالعة المقال الذي بين يدي دون أن يهتز لي جفن.. فنادتني من الصالة:ـ ألا تسمعين؟
ـ بلى..
ـ وكيف يمكنك التركيز؟
ـ دعينا من هذا، لا بدّ أنّه أحدٌ يتناول المشروب على السطح..

ـ كلا أعتقد أنّه أحد يريد الانتحار..
ـ لا تعقـدي المسـألة، يبـدو أنّ (بـوارو) قد قـرر زيارتك أنت هـذه الليلة..
بقيت أقرأ فقالت:ـ يا لبرود أعصابكِ..
لكننـا الاثنتـين تجمدنا في مكاننـا عندما سـمعنا صوت ضربة قوية ثـم صرخة «اللـه أكبر».
قالـت: «قلتُ لـكِ» سـارعتْ الى الباب لتهمـس:ـ «هناك رجال شرطة أمـام بيتنا».
اقتربـت ونظـرت مـن العـين الكاشـفة فرأيـت رجـالَ أمـن يصعـدون الى السـطح حاملين مصابيـح كاشـفة وجيراننا في الخـارج، حـاول شـاب الصعـود لكـن رجـال الأمـن منعوه، وسـمعنا صـوت كلام كثـير بالعربيـة وبالعبرية، اسـتجمعنا قوتنـا وفتحنـا البـاب سـألنا جـارًا عربيًـا:ـ مـاذا هناك؟
فقال لنا:ـ إنّها امرأة تحاول الانتحار.
ظهـرت (ناتـي) من باب شـقتها المحاذي لشـقتنا فابتسـمت لنـا وقالـت:ـ أرأيتن أخبرتكـن أنّ هـذه البناية غريبة
ثـم أخبرتنا أنها دخلت لتسـتحم فـرأت قدمًا تتدلى خـارج نافذة الحمام، نظرنا اليها مشـدوهتين.. سـألتها: «ومـاذا ألم بك؟»
ابتسـمت وعرضـت أن نذهـب لنـرى.. كان آخـر مـا يمكـن أن أتخيلـه أن أجـد نفـسي في موقـف مثـل هـذا الـذي وجدت (ناتـي) نفسـها فيـه.. رغـم أننـي سـكنت ذات مـرة شـقة قديمـة جـدًا خـارج نافـذة حمامها حبـل يتـدلى، وكان مثارة

لخـوفي لأننـي كلمـا نظرت اليـه تخيلت جثـة تتدلى منـه، وها جارتـي تـرى أقدامًـا تتـدلى. وجدتني أسـارع خلـف (ناتي) وأطـل بـرأسي مـن النافـذة لأرى رجلي المـرأة تتدليـان فوقي ثـم حانت منـي نظرة نحـو الشـارع، فوجدت جمهـورًا كبيرًا وسـيارات اسـعاف وشرطـة، كل هذا وأنـا جالسـة في غرفتي أحـاول أن أقنـع نفـسي أنّ كل شيء عـادي وطبيعـي.

وبينمـا كنـا الثلاثـة نتنـاوب على الاطلالـة من الشـباك ونعبر عمـا حصـل، كانـت المفاوضـات تجـري عـلى السـطح لإقناع المـرأة بالعـدول عـن رأيهـا فكانـت تبتعـد حينًا عـن الحافة، ثـم تقترب لتجلس مـرّة أخرى وتهـدد. علمنا أنّهـا مريضة في قسـم الأمـراض النفسـية وقد هربت مـن المستشـفى القريب، وأتـت الى بنايتنـا لتنتحر. انتظرنا حتى سـار الملـل في أوصالنا فسرنـا وصديقتي الى شـقتنا، نظـرتُ الى شـقة الرجل المخيف فوجـدتُ بابهـا مقفـلا.. مـن يـدري قـد يكـون حزينًـا لأنّه ليـس بطـل هـذه الليلـة، دخلـت البيـت لأجـد هاتفـي يـرن وكانـت صديقـة لي، وعندما أخبرتهـا بما يحصل، أشـارت الى أنّنـا يجب أن نقـوم بواجبنا المهنـي ونقنع المريضـة بالعدول عـن رأيها. أغلقـت الهاتف وتسـاءلت ماذا يمكننـي أن أفعل.. فتحـتُ القـرآن لأبحث عن سـورة ياسـين، وبينمـا رحت أخط بعـض الآيـات التي رأيـت أنّها قـد تسـاعد في اقنـاع المريضة جاءت صديقتـي تناديني.

وقفـت المرأة عنـد المدخل تنظر الى أسـفل نحو السـلم وتطلب

مـن الشرطـي أن يمسـكه جيـدًا، راحـت تنـزل ببـطء حتـى وصلـت، انتعلـت نعليها وهـي تتنقـل ببصرها بيننا وتشـعر بفـرحٍ كبـير، رفعـت الحقيبـة.. وهـي تقـول لنفسـها ها هم جميعًـا ينتظرونني.. ويريـدون رضاي..

تسـير قـرب الشرطي وتشـير الى جارنـا العربي وتقـول آمرة: «اعمـلي قهوة» فأجاب ايجابًا. وسـارت تتمخـتر والوجوه كلها تطل مـن الطوابق، لاحظـت حركة غريبة اتجـه نظري نحوها فـكان بـاب شـقة «الرجـل المرعـب» حسـب تعبـير (ناتي)، احتبسـت أنفـاسي قبـل أن يطـل.. وعندمـا ظهر.. اكتشـفت أنـه ليـس مرعبًا.. فجـأة بـدا الجميع عاديـين، والمـرأة تتنقل في العمـارة مـن طابـق الى آخـر ورجـال الشرطـة يعاملونها بلطـف وبحـذر وإن شاكسـت وتوقفـت عـن المشي.. تبتسـم ويداخلهـا فـرح شـديد، الجميـع يريـد رضاها حتـى شرطة اسرائيـل.. حتـى شرطـة اسرائيل.

آيار 2012

أمل

متشـحةٌ بالسّـوادِ يختلط لونُهـا بعتمة الغرفة.. تداعبُ شـعرَ صغيرتِهـا أمـل التي بالـكاد تغفـو، لتقفز مرتعـدة مع تجدد أصـواتِ الانفجارات.. تسـتغربُ لحظاتِ هدوء تمرّ.. تتسـاءل أي عاصفـة سـتأتي بعده.. وتحـاول جاهدة، لكنّها تفشـلُ في كبح رغبتهـا في البكاء..

ليلـة أمس في مثل هـذا الوقتِ بالـذات، كان هنـا بقربِها يهدئ مـن روعِهـا ويطمئِنُهـا أنّهما سـيخرجان وطفلتهمـا من هذه الحـرب بسـلام.. ولا بـدّ أن يمنحهمـا القدر المزيد مـن الوقت لكي يكونـا معًا..

لكنّ.. وفيما يبدو.. أنّه أخطأ هذه المرة..

تهزهـا أمـل التي اسـتيقظت للتـو.. سـائلة: "ماما.. سـامعة أصـوات الزمامـير برا؟».

تصغـي بوجـوم "مـاذا جـرى؟" فمـن لحظـة استشـهاد

زوجهـا لم تعـد تتابـعُ التقاريـرَ الإخبارية أو تسـتفسر عنها، أو تهتـم بسـماعها.. لقـد سـئمت كل شيء.. إنّهـا ببسـاطة تنتظـرُ الموت..

يُقـرع بـاب الغرفة، يظهـر شـقيقُها ويطلبُ منهـا أن ترافقَه الى مدخـلِ المنزل..

هنـاك حـينَ نظـرت في عيونِهـم أدركـتْ أنّ طيـفَ المـوتِ قد باعـدَ قليـلا.. يقفـون وبريـقٌ يلـوح في عيونهـم، يهمسـون بـأسى طالبـين الرحمـة لزوجهـا..

"انتصرنـا" يقول أحدهـم.. "خليناهم يتنازلـوا" يقول آخر..

تتابـع العيـون وتلمح البريـقَ أكثـرَ.. يداخلها شـعورٌ غريبٌ، مزيـج مـن الحـزنِ والفـرح .. ترفعُ يدهـا نحو فمِهـا وتطلقُ صرخـة مدويـة مـن أعماقِهـا، اختـارت أن ترنمهـا لتصـير مثلمـا يقولون "زغـرودة»...

تهزها الصغيرة المتعلقة بثوبها.."ماما.. إيش فيه..؟»

ـ"خلصت الحرب"

ـ"يعني راح يرجع بابا.."

ـ" لا يا حبيبتي.."

ـ "طيّب ليش بتزغردي؟"

تأخذهـا الى زمـن بعيـد الى ما يقـارب العشريـن عامًـا.. يومَ وجهـت لأمِّهـا السـؤالَ ذاتـه في موقـفٍ مشـابه، لتجيبها "لما بتكـبري راح تفهمي"

وها هي الآن فقط تجيد الفهم..

تشرين الثاني 2012

شتاءٌ آخر دونكَ...

عندمـا رأيـتُ كل تلك العيـون التـي في الداخل تنظـر نحوي، وتسـتحثني عـلى التقـدم.. وجدتنـي فجـأة أتجمـد مكاني.. أتمعـن في الوجـوه.. تلـك التـي قبالتـي وتلـك التي تطـلّ من زجـاج النوافـذ وأبحـث عنـك.. أنتظـر أن تتقـدم مـن بينهـا لتمـدَّ لي يـدك وتسـاعدني عـلى الصعـود الى الحافلـة.. يزداد هطـول المطـر ويبقى انتظـاري على حالـه، فيغضب السـائق المندهـش، لأشـيرَ لـه أن يمضي.. لـن أعتلي الحافلة مـا دمتَ لا تنتظرنـي هناك..

سـأمضي سـيرًا على الأقـدام.. مثلمـا تعرفنـي بلا مظلـة.. قد تتسـاءل لماذا؟ رغـم أنّك تدرك الإجابـة.. لم أحتـج يومًا تحت هـذا المطر سـوى معطفِـك وذراعك تحيطنـي لتعزلني عن كل ما هو غـيركَ..

obeikandl.com

لـم أكـن أبتغي أكثـر من الإندسـاس في معطفِـكَ، وركن رأسي عنـد حدود صدرِك لأنسى لسـعات الـبرد، ويصيرَ المطـرُ أجملَ عـازفٍ في التاريـخ.. وليكون البلـلُ أجملَ ما يمكـن أن يحدث لنـا معًـا.. لكـن ها أنـتَ تذهـب، وها هـو المطرُ يعـود وأبقى وحيدةً دونـكَ ودون معطف..

بعدَ كم مطرٍ ستأتي..؟

سـأبقى مـع المطـر دونـكَ إذًا.. أحبه لأنّـه يخفي انكسـاراتي الداخليـة.. لـن يميـزَ أحـدٌ دمعـي حـين يختلـط بدمـوعِ السّـماء.. ولـن يلحـظَ أحـدٌ أنينـي حـينَ يهـز الرعـدُ الأرضَ بصرخـة مجلجلـة.. أتعلـم أي كـم مـن الـصراخ ينحـصر في جسـدي.. وأحـاول كتمانـه مـذ رحلـت..؟

تبـدو المدينـةُ غريبـة دونـكَ.. لا تواسـيني مظـلات المحلات.. ولا الأشـجار.. ولا وميـضُ المصابيح المتناثرة.. تصبح الأشـياء دون معنـى في بُعـدك.. وأشـعر أننـي شـظايا روح تتخفـى بقالب جسـد.. وأحيانـًا أعود للتحديق في جسـدي والتسـاؤل أهـو متكامل أم مجرد شـظايا شـاء لها أن تجتمـع.. وتنتظر زخمًـا قويًا لتنفجـر وتعـود الى طبيعتها السـابقة؟!..

أجدنـي أمـام مقهانـا القديـم.. وأراه هنـا.. لأول مـرة يكونُ هنـا.. فقـررتُ أن أدخل..

اسـتغربَ النـادل كثيرًا حـين رآنـي.. دعاني حـالا الى طاولتِنا المفضلـة، وسـارعَ يحـضرُ لي مدفأة.. تسـاءلتُ هـل يعلم بما

حصـل..؟ هـل يرى انكسـاري الداخـلي..؟ لماذا هـو واثق على أننـي لـم آتِ لألقى أحـدًا غيرك..؟
يأتـي بفنجـان قهـوة وحيـد.. ولا يسـألني إن كنـتُ أنتظـر أحـدًا..؟ يغادرنـي بصمـت ويتركني أحـدق في فـراغِ وجودِك مـن خلـف ضبـاب قهوتـي.. ولا أكـف عن التسـاؤل؟
لمـاذا فعلـتَ بـي هـذا؟ لِما تركتنـي أحبك بهـذا الجنـون؟ أنا التـي قلـتُ لـكَ أكثـر مـن مئـة مـرّة «افعل ما شـئت سـوى الرحيـل عني..».
أردتُ ببسـاطة أن أعيـشَ حيـاة طبيعيـة وعادية.. لـم أرِد أيَ ملامـحٍ مـن الغمـوض.. ولا أيَ ملامـح بطوليـة أو ملائكية.. أردتـك أن تكون بقربـي.. أردتـكَ أن تكونَ لي.. لكنّـك فضلتَه عـليّ.. وصرتَ لـه.. وتركتني..
تسـقط دمعـةٌ مـن سـحابِ عينـي لتمتـزج بسـواد القهوة.. أسـارعُ بمسـح بقاياهـا.. أنظرُ حـولي لأرى إن كانـت أيٌّ من العيـون تتبعنـي.. فانتبهـتُ إليـه مـرة أخـرى.. أشـعر أنّـه ينظـر نحـوي ويشـعر برغبـة التشـظي في داخـلي.. يـدركُ عـذاب روحـي.. وأدركُ أنّـه حـان موعـدُ الانفجـار..
هنـا فقـط يصبـحُ الانفجـارُ ممكنًـا.. لا أحـدَ يحـاول لملمـة شـظاياك أو إيقـاف دويّـك.. لن يسـتطيعَ أحـدٌ أن يقيدكَ أو أن يحكـمَ عـلى كلماتِـك الداخليـة بالصمـت، حتى وإن سـمعَ صداهـا.. وأعتـى أجهزة الاسـتخبارات لن تتمكـن من ضبطك

متلبسًـا واصطحابِـك الى أقـرب معتقـل.. سـأقتربُ منه..
هنـا فقـط مـا بـين الأوتـار والألحـان أتـركُ لانفجاراتـي أن تـدوي كمـا تشـاء.. أتـركُ لـزلازلي الداخليـة أن تخـرج الى الأرض .. ولروحـي أن ترفرف الى السـماء.. هكـذا حين ترتفعُ ألحانـي وتهبـط، ويترنح جسـدي في مراقصتها.. أشـعر أنني أمتلـك المزيـدَ مـن الطاقـة لأحتمـلَ غيابَك..
أعـزف ويعزف المطرُ عـلى وجه الطريق، وفي لحظة اسـتثنائية وغـير مبرمجة قررنـا أن نتوقف معًا..
شـعرتُ لحظتهـا أنني بعيـدة جدًا عـن كل ما يحيطنـي.. لم أنظـر تجـاه أيٍ من عيـونِ رواد المقهى المتجهة بقـوةٍ نحوي.. جاءنـي صـوتٌ تصفيقهـم كصـدى بعيـد.. وهمـسِ أحدهـم يقـول:» كـم هـي رائعـة.. إنّهـا خطيبـة الأسـير.. محكـوم بمؤبدين..«.

تشرين الثاني 2012

سؤال

تنظـر اليهم مـن بعيد وهـم يجرون خلفهـا.. نسـائم خفيفة تتلاعـب بضفائرها.. تتسـاءل بقلـق تُرى هل سـيتمكنون من اللحـاق بها..؟

لكـن أيـن هـو..؟ لمـاذا لم يظهـر حتـى اللحظة؟ هـل يمكن أن يفعلهـا ويبقـى غائبًـا حتى في هـذه اللحظـات العصيبة؟ ألـن يأتـي لينقذها؟

لقـد تعـرض لمثـل هـذا الموقـف قبـل عـام ونصـف وراحت تجري هـي معهم خلف سريـره.. لكنّ أولئك أصحـاب الأردية البيضـاء قـد أدخلـوه الى غرفة وأوصـدوا البـاب خلفهم..

وصلـت الغرفـة.. طُلب منها أن تهـدأ وترتاح قليـلا.. ليقتربوا بعـد دقائـق ويحيطـوا بالسرير.. تحـاول أيديهـم أن تمتد الى فمهـا.. تقـاوم.. تشـعر بألم شـديد.. وتقـاوم.. تقـترب امرأة

obeikandl.com

بدينة تضغط بشيء ما على فمها.. فتنهار قوتها المقاومة وتغمض عينيها..

سوادٌ.. شيء من اللّا الشيء.. لحظاتٌ لا تظهر معالمها.. ولا تفهم شيئا منها..

إلا حين تشعر ببعض النور يظهر.. تحاول بحذر شديد أن تفتح عينيها لتطلّ على المشهد.. تسمعُ الصوتَ الرتيب للآلات ذاتِها.. تنظرُ حولها في الغرفة الفسيحة. ترى امرأتين برداء أبيض مشغولتين بتنظيم الغرفة..

تشغل انتباهها شاشاتُ أجهزة لم تسمح لها سنواتها الثماني من العمر أن تعلم أكثر من أنّها تعبِّر عن عمل القلب.. إذ كثيرًا ما شاهدتها في المسلسلات.. وعندما يمرّ الخط الأخضر متواصلا دون تعرجات عادة ما يشير الى موت الشخص.. راحت تتابع الآلة بقلق.. وإن حدث ومرّ الخط متواصلا تغمض عينيها وتتساءل هل يعني أنّها ستموت.. وتنتظر.. لتتذكره فجأة..

عادت تنظر في أنحاء الغرفة.. إنّه ليس هنا.. نظرت الى الباب الموصد.. هل يمكن أن يكون هناك في الخارج ينتظر؟..

تنظر الى موضع ألمها.. تتساءل هل سيكون الآن كل شيء على ما يرام؟..

تعاود النظر الى الآلات حولها.. لماذا تخشى أن يتحول الخط

الأخـضر الى الاسـتقامة..؟ لمـاذا تشـعر بهـذا الخـوف وتحث قلبهـا عـلى العمل.. هل تخـشى الموت؟ لكـن ماذا يعنـي هذا؟
يدخـل رجـل بـرداء أبيـض ويسـألها إن كانت على مـا يرام..
أجابـت بالإيجاب. بدأ السرير بالتحرك، تشـعر برغبة شـديدة بالـصراخ.. رغبـة في أن تناديـه.. ربما هو خلـف الباب..
يُفتح الباب..
تظهـر أمّها هنـاك وعيونَها محمـرة لكثرة البكاء.. وشـقيقاها الصغـيران.. لكنّه هو ليـس هنا..؟
تسـارع أمّهـا الى السريـر لتقبلها وتحمـد الله.. وهـي ما تزال تبحـث بذهـول، وتشـعر برغبـة شـديدة في السـؤال.. أين هو أبـي؟ حتـى اليوم لـم يرحم شـوقي إليـه ويأتي..؟
تعلـم أنّها ستسـمع ذات الجواب.. سـتخبرها أمهـا مرّة أخرى أنّ أباهـا قد مات..
ومرة أخرى لن تفهم..
فقررت أن تصمت..

2012\11\9

أحلام صغيرة.. دروبٌ ضيقة

مهداة الى الطفل عمران كستيرو - القدس

تهبُ نسمةٌ تحركُ القماشَ المسدَلَ على مدخلها.. وينظر من فراشه عبر منفذ ضيق أحدثته عبثية تلك النسمة.. الى بقايا ما كان له هناك.. ويتذكر حديث جدِهِ عن الخيمة في المخيم قبل خمسة وستين عامًا.. وكلما تذكر قال: «الله يقطع هذيك الأيام».

ويحاول جاهدًا أن يغفو.. لكن..

* * *

يُقرع الجرسُ.. يسيرُ نحو الصفِ بخطواتٍ وئيدة.. يحاولُ صديقُه أن يدفعَه للتقدمِ، فهو الوحيدُ بين الجميع يعلمُ سبب الشحوب الذي يظهرُ على وجهِ صلاح..

تدخل المعلمةُ الى الصفِ، تطلبُ من الطلابِ فتحَ الدفاترِ والكتبِ.. يستجيب الجميعُ باستثنائِه هو، الحقيبةُ مغلقةٌ،

النافـذةُ بقربِـه مفتوحـةٌ.. يتركُهـا مشرعـةً لأصواتٍ سـتأتيه مـن بعيـد، رافضًـا الاسـتجابةَ لطلب زملائـه بإغلاقهـا لتردَ عنهـم برودة شـباط.

تسـأله المعلمـة عـن كتابـه.. يقـول لهـا أنّـه نسـيه في البيت، فتطلـب منـه أن يشـاطر زميلـه القـراءة في الكتاب.

يُغلـقُ أحد الطـلاب النافذة تلبيـةً لطلبِ المعلمـة.. فيما يحاولُ هـو أن يسـتجمعَ ذاكرتَـه.. حـولَ أشـيائِه الصغـيرة.. أوراقٌ ودمـى كثـيرة تركهـا هنـاك.. في كيـس قـرب بـاب الغرفـة، وأبقـى عـلى أخـرى في مكانِها.. لأجل أمـلٍ في صـدره يأبى أن يخبـو. اليـومُ سـيعودُ الى البيـتِ ليتنـاولَ طعـام الغـداء مع أمِـه وأبيـه وأخوتِه.. حـول المائدةِ نفسِـها، وربما سـتوقد أمُه مدفـأةَ الحطب، وستشـوي لهم الليلة الكسـتناء.. وسـيلعبون ويسـهرون معًـا مثـل كل ليلة..

يشـعرُ فجأةً بصديقـه يلكزه لينتبـه الى المعلمـة.. التي راحت تصرخ بـه سـائلة: «أين وصلنـا في القراءةِ يـا صلاح..؟»

بقـي الطفـل ذو الشـعر الأشـقر واجمًـا دون جـوابٍ. تعـودُ المعلمـة للسـؤال: «عـمّ كنـت أشرح الآن يـا صـلاح؟»

ينتبـه الى اصبـعِ زميلِه يشـيرُ لـه الى جملة في الكتـاب، فشرعَ بالقـراءة عـلى مضض حتـى أذنت لـه المعلمـة بالتوقف.

لكـنّ نظـر صـلاح عـادَ ليبتعـد عـن الكتـاب ويتجِـه نحـو النافـذة، بـل تجـرأ ووقـف لفتحهـا.. وهنـا سـمعَ الصـوتَ

الغريـبَ.. إنّـه منخفـضٌ.. لكنّـه يسـمعه.. لقـد جـاؤوا.
لـم تتمكـن المعلمـة من فعـل شيء، أو حتـى ردِهِ حـين أطاح بكرسـيه وركـض مسرعًـا نحـو البـاب، خارجًـا دون إذن.
ليحتـل الصمـت أجواء الصـف الضيـق عندما وقـف صديقه رشـيد وأخبرهـا سـبب شرود صـلاح. طلبـت المعلمـة مـن الأطفـال أن يخرجـوا دفاتر الرسـم مـن حقائبهم، ويرسـموا أحلامهم.. فيما جلسـت شـاردة الذهـن قرب النافـذة تتقصى مصـدر الأصـوات القادمة.
بـدا المشـهدُ كضربٍ مـن الهذيـان.. المطـر يسـقط والجدران تسـقط.. ومعهـا يـدركُ أنّ أحلامَه لهـذا اليوم لن تكـون.. لن يتنـاول الطعـام وعائلته حـول مائدتهم.. لن يعود الى فراشـه مـرة أخـرى.. ولن تفـوح في المسـاء الدافئ رائحة الكسـتناء.
الكيـس الـذي جمـع فيـه أغراضَـه يقـفُ تائهًـا بـين أشـياء أخـرى تمكن والـداه وأعمامُـه مـن انقاذها قبل أن يسـتحيل البيـتُ ركامًـا.. تعـاودُ الجرافـة لتتجـه الى القسـمِ الأخير من المنـزل والذي يشـمل غرفتَه.. يسـارع ليصرخ باكيًـا.. «لا..».
يبكـي الجميـع من حولِـه.. ويسـقط الجـدارُ الأخير.
تعـاود الدمـوع لتتسـلل مـن عينيـه.. في هـذه الليلـة الباردة مـن آذار.. يحـدق في الجدران البيضـاء للخيمـة، التي صارت خيارهـم بعد أن تفرقـت العائلة لأسـابيع عند الأقـارب.. كان لا بـدّ مـن عـودة.. الى ركام البيـت.. ونصـب خيمـة قدّمهـا

الهــلال الأحمر.
يحــاول جاهــدًا أن يغفــو.. يــرى جده يقــترب ليجلــس قرب فراشــه.. يســأله عــن الخيمــة..؟ فيــشرع محدثًــا إيــاه عمــا حصــل.. كيف صــار بيتهم مخيمًــا.. وكيف ضاعت أشــياؤه؟.
وقبــل أن يختفــي وجــه جــده اســتوقفه قائلا:
« الله يقطع هاي الأيام يا سيدي».

2013\2\6

opelkandl.com

أشياء لم يجمدها الصقيع بعد..

يدوي صـوتُ الصافـرة.. يتوقـف القطـار.. ويسـارع جميع مـن حولهـا بالنزول تحـت المقاعـد، باسـتثنائها هـي، تبقى في مقعدهـا، تغمـض عينيهـا.. وتنتظـر، لحظـاتٌ قصـيرة و يسقط . .

"ليته يسقط هنا.. ويكون الانفجار..

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

لينته كل شيء».

* * *

لم تسـقط ثلـوجُ موسـكو بعـد.. لكنّه صقيـعٌ من نـوعٍ آخر جـاء عـلى كل شيء.. لتصـيرَ أحلامُها فجـأة واقفـة في الطريق بالـكاد تـرى من أين سـتمضي..؟ تحلـق من مطـار الى آخر.. تظـن أنّهـا قد وصلـت لكنّهـا تكتشـف دومًـا أنّ شـيئًا منها

obeikandl.com

بقــي في الطائرة المحلقــة بعيدًا.
تجــرُّ الحقيبــةَ.. وتُــدرك اســتغراب الحارس وهــو ينظر نحو عينيهــا الحمراويــن.. يتســاءل «ما الــذي يدفع هذه الشــقراء الجميلــة الى كلّ هــذا الحــزن؟» لكنّ هــذا لم يمنعهــا من إدارة ظهرهــا، وعــدم تلبيــة دعوتــه لهــا للبقــاء في داخــل قاعــات المطــار، دون الخــروج الى الريــاح البــاردة التــي جــاءت بهــا أواســط نوفمبر.
تســير بين محطــات القطــار، تبحــث عــن عنــوان يعيدها الى مســقط رأســها.. وهي تــدرك أنّها ليســت المحطــة التي كانت تنشدها.
تجلــسُ متهالكــة على المقعــد.. عــشرُ دقائق ويصــل القطار.. تمــرّ بعدهــا ســاعة ونيــف مــن الزمــن وســتبدأ بمعايشــة كابــوسٍ جديد..
الريــح بــاردة لكنّهــا لا تــوازي بــرودة ريــاح موســكو.. ولا تســتطيع أن تخفــف مــن وطــأة النــيران التــي تشــتعل في صدرهــا..
" أحيانًــا لا تــترك لنــا الحياة المســاحة لنســير في الــدرب الذي نريــد..» جاءتهــا الكلمــات باللغــة الانجليزية مفاجئــة، أفاقت مــن شرودهــا لتنظر الى مصــدر الصوت.. فــرأت راهبة بيضاء البــشرة في الأربعينيــات من عمرهــا تجلس بقربهــا تنظر نحو ســكة الحديد.. وتســتطرد: « أحيانًــا نســيرُ في دربٍ ونظن أنّه

الطريــق الى الحلم.. وفجــأة يقفز دون ســابق انذار..».
ثــم تعــاود النظــر إليهــا مبتســمة: «لكنّ هــذا لا يعنــي أنّه لم تعــد للحلــم دروبٌ أخرى نحــو الحياة..».
يتوقــف قطــار عنــد المحطــة.. تنهــضُ الراهبــة تقــول لها :» ليرعــك الــرب..» وتمضي لتدخــل أحد الأبواب المشرعــة، وتغيب وســط الزحام..
تنطلــق القاطــرة لتقــف أخــرى بعــد لحظــات.. هــذه هــي وجهتهــا التي ســتأخذها بعيــدًا عن صخــب المطــارات.. تجرّ حقيبتهــا الثقيلــة التــي حزمتها قبــل ثلاثة أيام فقــط.. عندما جــاء بهــا هــذا القطــار الى هنا.
تمرّ دقيقة ويرتفع صوت الصافرة لتغادر مطار تل أبيب.
تتســاءل.. تُــرى ماذا ســتفعل الآن؟ كيف ســتبحث عــن بداية جديــدة بعــد أن ظنــت أنّها ســتبدأها قبل أيــام قليلة.
كان كل شيء أجمــل وأوضــح.. هــا هــي الطرقــات جميعهــا تعــود لتختلــط.. تحــاول اســتذكار مــا حصــل..
كيف راحــت تنظر اليهــا من خلــف النظارة لتقول ببســاطة: «لا يمكنــك البقاء هنــا أكثر من ثلاثة شــهور..»
ظنّــت للحظــة أنّهــا أخطــأت الســمع.. لتتســاءل: «مــاذا.. تقصديــن ؟»
تعــود الروســية الشــقراء الى الخلــف لتســند ظهرهــا وتعدِّل النظــارة عــلى عينيهــا قائلــة بالروســية:» هــذه الفيــزا التــي

بحوزتك، غير مناسبة لوجودك هنا كطالبة.. بل كسائحة..»
في تلك اللحظة شعرت أنّها تسقط في هاوية عميقة من الأسئلة.. تساءلت من عمق هاويتها: «ماذا أفعل؟»
جاءتها الإجابة من بعيد.. «عودي لبلدك جددي الفيزا، وعليك العودة الى موسكو خلال أسبوع..».
تقهقه الطفلة الحالمة في صدرها وما تلبث أن تنفجر بالبكاء.. هل تدرك هذه الشابة كم عملت وعمل والداها لتدّخر سعر التذكرة وتكاليف السفر الى هنا..؟ ظنت نفسها كسبت تذكرة تأخذها الى درب الحلم.. وها هي التذكرة تتبلل وتتقطع الجسور..
أيمكن أن يكون كل هذا حقيقة..؟ تعاود لتسأل: «ألا يوجد حل آخر؟»
تأتيها الاجابة من بعيد:» كلا.. أنا آسفة».
تحدق في وجه الشابة ولا تراها.. تدرك أنّ بقاءها جالسة على المقعد عبثي.. ويتحتم عليها مغادرة المكتب لتفكر بهدوء.
تخرج من الجامعة لتسير الى محطة الحافلة.. قاصدة منزل صديقتها علّها تعينها على حل..
تتخذ مقعدًا، وتتأمل الطرقات في مرورها.. هنا كانت قبل أشهر قليلة لتستكمل دراستها للّغة الروسية.. بعد أن ابتدأتها في البلاد.. جاءت لتخطو خطواتِها الأولى.. وعادت

الآن لتقـول لموسـكو أنّهـا سـتصير مدينتهـا، وهي مسـتعدة لقصـة حبٍ جديـدة مـع مدينـة جديدة..

لكـن.. يبـدو أنّ موسـكو لم تقاسـمها مشـاعر الحـب.. وإلا كيـف تدعهـا ترحـل؟ هكذا ببسـاطة..

تنساب دمعة من عينيها..

وفجأة تسـتفيق مـن شرودها، عـلى صوت الصافـرة.. يتوقف القطـار.. وتتنهد بحـزن.. ناطقة باسـم «غزة»

تحـاول أن تتابـع تأملاتِهـا وحزنهـا.. لكنّها تنشـغل بمتابعة الـركاب مـن حولهـا الذيـن قفـزوا حـالا ليبحثوا عـن منجى تحـت المقاعـدِ والطاولـة الصغـيرة المتـدة بـين كل أربعـة مقاعـد متقابلـة في القاطـرة..

تقـول لنفسـها: «يـا لهـم مـن جبنـاء».. ثـم تغمـض عينيها لتسترسـل: «قـد جاء الصـاروخ من هنـاك من غـزة في الوقت المناسـب.. سـتكون رصاصـة الرحمة.. ليسـقط هنـا في هذه المسـاحة بالـذات.. ولتلتهـب جميـع الطرقـات.. ولينتـه كل شيء..» وتبـدأ بالعـد..

فجـأة تهـزُّ يـدٌ سـاقَها، تفتـح عينيهـا لتنظـر.. فـترى امرأةً في الخمسـينيات مـن عمرهـا تجلس تحـت الطاولة.. تسـألها بخـوف بالعبريـة: «هـل يظهـر شيء مـن النافـذة؟» تجيبها بالنفي..

يسـألها شـاب بالعبرية مـن الجهـة المقابلة، وقـد كان الوحيد

غيرهـا ما يـزال فـوق مقعـده دون أن يحاول الاحتمـاء تحت المقعـد: «لمـاذا لا تختبئين ألا تشـعرين بالخوف؟»

تجيبـه بالعبرية:» نحـن العرب لا نخـاف، ولا يهمني أن أموت الآن.. بـل انـي أتمنى ذلك»

إذ بملامـح وجهه تختلـف، ليتحـدث بالعربية:» أنـتِ عربية؟ أهـلا بك يـا أختـي.. لكن لمـاذا كل هـذا الحزن؟»

ـ» قصة طويلة..»

تطـلّ بعـض الرؤوس مـن تحـت المقاعـد لتسـتطلع الحال.. فيمـا تختفـي أخـرى.. ويعلـو صـوت الهمهمـات والأدعية.. وينهـض هـو لينظـر عبر نافـذة زجـاج الى القاطـرة المقابلة، وسرعـان ما يشـير لهـا بـأن تنهـض لتقترب.

قامـت لتتجه اليه، وهناك حاولا جاهديـن أن يكتما ضحكهما.. ففيمـا يختفـي الجميـع خائفـين تحـت المقاعد، يتمدد شـاب عربـي يصور المشـهد عـبر كاميـرة الهاتـف مبتسـمًا. وحالما وقـع نظـره عليهما رفـع إبهامه محييًّا مشـيرًا علامـة النصر. ابتسـما وبـادلاه التحيـة، همـس الشـاب بقربها «يـا لهم من جبناء!»..

قالـت وهـي تتجـه نحـو مقعدهـا: «ربما.. لكـن ألا تنكـر أنّ شـجاعتنا تتسـم أحيانًـا بالغباء وسـوء التقديـر..؟!»

ـ «ماذا تقصدين؟»

ـ «ألا تذكـر في حـرب لبنـان عـام 2006، قد مـات الكثير من

شـعبنا.. لأنّنـا حين تطلـق الصافـرات وتنطلـق الصواريخ... فيمـا يسـارعون هـم الى الملاجئ، ويتخـذون حيطتهـم، نحن لا نكتفـي بعـدم وجـود ملاجئ مناسـبة لنـا، بل نسـارع الى السـطوح والشرفات.. لنرقـب موقع سـقوط الصواريخ.. ماذا تسـمي هذا..؟»

توقفـت الصافـرة، وراح الجميـع يعـود الى مقاعدهـم، وبقي هـو بقربهـا ليقول: « أسـميه حالـة قسرية من الجنـون.. هل تعتقديـن أنّـه يوجـد شـعبٌ غيرنـا يفـرح حـين تسـقط على بـلادِه القذائف..؟»

تتنهد قائلة وتعود بنظرها نحو النافذة:» كلا أشك بذلك..»

تكـبر الحرقـة في داخلهـا.. حـين تذكـر كلماتـه الأخـيرة قبل الرحيـل.. فيما تعود الأسـئلة والحـوار الجديد لقطع سلسـلة أفكارهـا.. يسـألها: «عفوا ما اسـمك؟»

تجيـب بتلقائيـة : «سـيلين». تسـأله مـن بـاب الواجـب عـن اسـمه فيجيـب «نـزار».

تعـود لتخاطب نفسـها وتدقق النظـر في الأماكـن العابرة من النافذة «انا هنـا إذًا..»

قالـوا لهـا الليلـة سنسـهر حتـى الصبـاح.. الأصدقـاء والصديقـات مـن دول في العالـم العربي قريبون جـدًا.. فجأة لـم تعـد تونس غريبـة خفية خلـف البحار.. وسـوريا صارت أقـرب، يمكـن رؤيتهـا بيوميـات مـن عايشـوها.. ولـم تعـد

هنـاك غمامـة من الغرابـة والمجهول عنـد النظـر الى العراق.. وفلسـطين كذلك بـدت أقـرب.. هنا مؤيـد من غـزة، الذي هو أكـبر المجموعة سـنًا إذ جـاء منذ تسـعة أعوام.. وهـا هو يكاد يحصـل عـلى اللقـب الثالـث في الكيمياء..

التقتـه صدفـة في مقهـى في الجامعـة.. وحـين علـم أنّهـا من الجليل سـأل بلهفة عن سـبب قدومها للدراسـة في موسـكو.. راحـت تعـدد الأسـباب، لكن حـين ذكـرت أحدها وهـي عدم احتمالهـا سـماع اللغـة العبريـة والتفرقـة الموجـودة تجـاه العـرب في الداخـل، اسـتغربت موقفـه اذ قـال «اذًا يجب عليك العـودة لتواجهـي كل هـذا.. وتبقي هنـاك». ضايقهـا كلامه، ليضيـف بعـد لحظـة: «وإن لـم تفعـلي وبقيـت هنـا بعـد الدراسـة فستسـاهمين بتحقيـق مآربهـم».

في تلـك السـهرة الأخـيرة لهـا معهـم فارقهـا الجميـع بدمعة وحـزن باسـتثنائه هو، ابتسـم وقـال لها «سـتعودين بأسرع مما توقعـت..» حاولت الابتسـام فقال:» ابدئـي هناك طريقك فهـذا أفضـل.. وإن شـاء اللـه سـنلتقي ذات يـوم وتخبرينني مـاذا حملت لـك العودة».

تنظـر الى البحـر في الجهـة اليُسرى، تسـأل المـدّ أن ينحـسر برسـم طريـق مـا على الرمـل عنـد الجزر. لكـنّ الهـواء ليس طليقًـا هنـا.. ربمـا لـن تـرى اصدقاءها هنـاك مـرة أخرى، لقـد عـادت الى القوقعة..

تشعر باختناق.. وتسقط بضع دمعات من عينيها، ينتبه نزار لها.. يسارع بإخراج منديل ورقي ويقدمه لها. ليتساءل: «ماذا بكِ يا أختي؟»

ـ» لقد قضيتُ عامين بعد انهاء الدراسة الثانوية أعمل لأدّخر النقود لدراسة الطب، وسافرتُ الى روسيا لأدرس هناك، وانا سعيدة ظنًا مني أنني أخيرًا عرفتُ الدرب الذي سأسلكه.. لكن سقط كل شيء وضاعت الطريق في لحظة واحدة.. عندما تبين أنّ نوع الفيزا التي بحوزتي لا توافي شروط الاقامة هناك وعليَ العودة الى هنا لتجديدها.. ووضعي المادي لا يسمح بحجز تذكرة أخرى والعودة الى هناك خلال هذا الاسبوع».

تنهدت.. لتقول: «سيكلفني هذا الكثير.. ويبدو أن الطريق الثانية بالبقاء هنا هي الأنسب.. لكنني لا أعلم من أين سأبدأ..»

-" ألا يمكنك دراسة الطب هنا؟»

"لم أقبل حتى الان..»

"حاولي أن تدرسي موضوعًا طبيًا آخر.. وركزي اهتمامك عليه.. في كل الاحوال انا أعمل ممرضًا وهاك رقم هاتفي.. يمكنك محادثتي متى شئتِ إن احتجت مساعدة او استشارة».

ابتسمت شاكرة.. وصافحته قبل أن يترجل من القطار

في حيفا مودعًا اياها.. وفكرة داخلية عادت تلح عليها.. كيف يمكن أن تتدبر أمر السفر والعودة مرة أخرى الى موسكو..؟

هناك في عكا عندما ترجلت من القاطرة ووقع نظرها على أمّها وشقيقها شعرت بجسدها ينهار.. تريد أن تلقي كلّ حمولتها بين كتفيهما..

لتبكي في حضن أمها ضباب الطرقات.. وتتساءل هل ستحتمل شقاء الفراق مرة أخرى..؟

همست أمّها تخبرها أنّه وصلتها رسالة قبول لدراسة علوم الأحياء في جامعة محلية.. هزّت رأسها ومشت..

* * *

جلست تتابع النشرة الاخبارية قلما تفعل هذا.. لكنّ أحوال الحرب على غزة تستدعي هذا.. ها قد مرت ستة أيام على الحرب ويومان على عودتها.. ولم تستكن نيران الحرب بعد.. وما زالت اسرائيل تحشد قواتها الاحتياطية على حدود غزة لحملة برية.. والخوف ينتابها بشدّة جرّاء هذا.. فهي ما تزال تذكر جيدًا الحرب السابقة في عام 2009 وأي مجازر شهد القطاع.. حدّثها صديقها مؤيد كثيرًا عن أوجاع القطاع.. مؤيد.. ذاك الشاب الغامض الذي لم تفهمه يومًا.. بين مجموعة أصدقائها هناك وكم رغبت أن تعرفه أكثر. هناك شيء من الصمت في شخصه

يدفعهـا دومًا للسـعي الى كشـفه.. تتنهد وهي تتابـع التقرير الاخبـاري وتـشرد بذهنها بعيـدًا. وتَعِدُ نفسـها أنّها سـتنجح في هـذا عنـد عودتهـا بعـد يومـين الى روسـيا.. أجل سـتعود لقـد اتخـذت قرارها.. ولـم يملـك والدها أمام إلحاحها سـوى أن يتوجـه قبـل قليـل الى المـصرف لمحاولة طلب قـرض مالي.

تتسـاءل: «تـرى هـل وافـق المـصرف عـلى طلبه؟ خاصـة أنّ ديونـه ازدادت في الفـترة الأخـيرة..؟» وفيما هي مسـتغرقة في التفكـير انتبهـت الى أنّهـا تشـاهد وجهًـا مألوفًـا على شاشـة التلفـاز. عـاودت النظـر مـرة أخرى لتـصرخ:» يـا الهي».

إنّه مؤيد.. قد عاد الى غزة.. لكن كيف تمكن من هذا..؟

تصغـي.. لتفهـم أنّه جـاء مع الشـبان العرب الذيـن قدموا في اليوم السـابق تضامنًا ودعمًـا للغزيين.

يسأله الصحفي:» لماذا عدت يا د. مؤيد»

ـ» أتيـت لأدعـم بلـدي وأقـدم الافادة لأبنـاء شـعبي... ولأنني شـعرت في هـذه الحرب كـم تحتاجنـي غزة».

ـ «لكـن ألا يكبلـك هـذا علميًـا. ويفـرض الحصـار والوضع الأمنـي نفسـه على تطويـر أبحاثـك..».

ـ «لا بـدّ أن تكـون هنـاك الكثـير مـن المعوقات.. لكننـي أعلم أنّ غـزة تحتاجنـي لننتـصر معًا عـلى الحصار..».

تتابعـه غـير مصدقـة كيـف جـاء بهـذه السرعـة.. وتعاودها ابتسـامته وعبارتـه الأخـيرة يوم ودعهـا.. عن لقـاء يجمعهما

ذات يـوم. هكـذا اذًا لقـد جـاء ليتحـدى حصاره..
اسـتغرقت في التعمـق باختنـاق داخلي يسـاورها منـذ عادت الى هنـا.. لتجـدّ أنّه أقـل وطأة، فقامـت مسـارعة الى الهاتف، وحـين جاءها صـوت والدهـا سـارعت بقولها:
"أبي لا تطلب القرض.. لن أسافر..».

نيسان 2013

obeikandl.com

مع الريح وخلف العاصفة

كـم تحـب الجلـوس عنـد الشـاطئ القريـب مـن بيتهـا عند العـصر، ولداهـا يدرسـان للامتحانـات الثانوية، فقـررت أن تصحـب الصحيفـة وتتجـه لتقرأها هنـاك.. لكنّ صـوت بكاء خافت سـمعته عـن مقربة، جعلهـا تبتعد قليلا عن مسـاحات السـطور والورق لتنظـر نحوهـا.. الى المرأة الخمسـينية التي تجلـس بقربهـا عـلى ذات المقعد..

تبادرها متسائلة: «لماذا تبكين.. هل أستطيع المساعدة؟»

تحـين نظـرة مـن المـرأة اليهـا ولا تجيـب.. باديًا عليهـا عدم الفهـم. عادت لتكـرر السـؤال باللغـة العبرية.. وهنـا تنهدت المـرأةُ صاحبة الشـعر العسـلي لتقـول بصوت متقطـع: «لقد علمت اليـوم أنّ لـدي ورمًـا سرطانيًا..».

ازداد اهتمامهـا وقامـت بطي الجريدة لتسـألها:» في أي عضو هـو المرض؟»

obeikandl.com

ـ»في الثدي»
ـ» أهو في حالة متقدمة؟ ام ما يزال في بدايته..؟».
ـ» في بدايته..»
ـ» حسـنًا خففي عن نفسِـك فقـد تقدم العلاج كثيرًا.. وسـيتم اسـتئصاله وتحصلـين عـلى دواء يمنـع عودتـه.. سـتكونين بخير.. سـمعتُ عـن كثيرات يعـدن الى حياتهـن الطبيعية بعد العـلاج.. فقط تحـلِّي بمعنويـاتٍ عالية..»
بـدت المـرأةُ مصغيـة وقـد توقفت عن البـكاء.. لاحظـت تقدم جنـدي نحوهمـا مـن ناحيـة المـرأة، ممـا دفـع الأخـرى لأن تنظـر الى الجهـة ذاتها.. وهنا عندمـا وقع نظرهـا عليه، تهلل وجهُهـا.. وقامت مسـارعة نحـوه، لتضمه قائلـة:» أخيرًا عدتَ يـا بني..»
أمّـا هي فعـادت سريعًـا الى أوراق الصحيفة ترفعهـا، لتخفي دمعًـا راح ينسـاب عـلى وجنتيهـا، وهي تقـرأ عـن احتفالات عـلى أرضِ قريـةٍ كانـت لهـا.. عزلوهـا وأهلها عنها قبـل أكثر من سـتين عامًا، بعدمـا اسـتبدّ بالقرية ورم خبيـث ولم يعثر لـه أحد عـلى دواء..
سـمعت المـرأة تقـول لهـا بصـوت منخفـض: «الى اللقـاء».. فأجابـت.. وحـاذرت كلتاهمـا النظـر في عينـيّ الأخـرى.

آذار 2013

انسياب الذاكرة

كـم كان عـلى عجـل للوصـول الى هنا بالـذات.. ولكـن عندما وصل.. صـارت خطواتُـه تتباطأ.

يلحـظُ بعـض التغيـيرات القليلـة كلمـا تقـدم.. حتـى وصل اليهـا، لتنبعـث ذكريـاتٌ رقـدت هنـا في كل ركـن منـذ اثنـي عـشر عامًا.

لكنّهـا تبدلـت كثيرًا.. لم تعـد الحديقـةُ مثلما كانت يـومَ كانَ وأصدقـاؤه يلعبـون هنـا. لقد انتشرت الأعشـاب فيهـا، وطال امتدادهـا في كل مـكان.. كأنّ جميـعَ سـكانِ البنايـةِ رحلـوا.. ومـا عـاد من أطفال يولـدون ويبقـون امتدادًا للحيـاة في هذه الحديقـة، التـي لا تزيد مسـاحتها عن خمسـةٍ وعشريـن مترًا مربعـا، لكنّهـا حملـت الكثير مـن طفولة قُـدر لهـا أن ترحل عنهـا في سـن العاشرة.

يتجـه نظـرُه بسرعةٍ نحـو الجهة اليُمنـى، وكأنّه تذكـرَ فجأة

السببَ الذي جاء من أجله.. يُسارع مارًّا على الاعشاب.. هناك على ارتفاع متر عن الأرض في جدار يحيط البناية، قرب قضيب حديدي، كانت تتسلقه ذات يوم دالية عنب صغيرة ، تقع تلك الكوة الصغيرة والتي كانت ذات يوم بريدًا يتبادلان فيها الرسائل.

تظهرُ بعضُ الأعشابِ عند مدخلها.. لتتسارع نبضات قلبه، يمدّ يده دون أن يفكر بإمكانية وجودِ حشرات خطرة هناك.. فهو يخشى أن لا يعثر على ضالته..

عندما لمسَ كيسًا بلاستيكيًا في الداخلِ شعر براحة.. أخرجَه بسرعة، ليحرر تلكَ الرسالة التي انتظرت هنا أكثر من عقدٍ ليأتي اليها..

وبعد أن فتحها بحذر ليقرأها، لم يحتمل أن يكبت الدموع التي احتقنها طيلة الطريق الى هنا.

الآن يُدرك فقط كم جاء متأخرًا..

* * *

عشرُ دقائق وينتهي الدوام.. كم يصير الدوامُ مملا قبل عطلة العيد.. خاصة في دقائقه الأخيرة.. وعلى الأخصِ عندما تُدرك أنّ أصدقاءك ينتظرونك منذ ساعتين، لتنطلقوا معًا في رحلة الى البحر

"عفوًا هل يمكنك مساعدتي..؟»

انتابته خيبة داخلية، خشية من أن تؤخرَه هذه الزبونة عن الخروجِ، لكن ما إن وقعَ نظره عليها.. حتى قال

لنفسه لا بأس في أن ينتظره أصدقاؤه قليلا..
قدمتْ له أوراقًا وصلتها بالبريد ووضعت جهازها الخلوي أمامه، لتحتج على عدم تلبية خدمات هاتفية، طلبتها من الشركة..
فجأة وبدلا من الاستمرار بذات اللهجة.. وفي الوقت الذي كان جلّ انتباهه مُنصبًا على جمال شفتيها وتناسقهما، انتبه أنّ تلك الشفتين انطبقتا قليلا لتنفرجا عن اسمه بنبرة ملؤها الاستغراب.. «سامي..! أنت سامي الأسمر..؟».
جاء اسمُه ليوقظه، ويردّه قليلا عن الابحار في عينيها العسليتين، ليهزّ رأسه إيجابًا..
عدل جلسته عندما رأى دهشتها في ازدياد وراح ينبش ذاكرتَه.. تُرى من يمكن أن تكون هذه الصبيّة؟ كيف يمكنه أن ينسى صاحبة وجهٍ كهذا..؟
أتته الاجابة سريعًا: «انا ريم.. ابنة خال نيسو..»، تمعنت في تغير ملامحه وانقلاب سحنة وجهه من البشاشة الى التفكير العميق.. لتلقي بحجرٍ آخر تحرك فيه مياهَ ذاكرة راكدة منذ اثني عشر عامًا حين قالت: «صديقك نسيم يا سامي هل تذكره..؟»
ضرب على رأسِه.. ليهزه مجيبًا بالإيجاب، محاولا تذكر وجه تلك الطفلة الجميلة التي تصغره بعامين، وكم كان يفرح بلقائها كلما رافق صديقَه لزيارة أخيها، ليتجلى وجهُ صديقِه نسيم وهو راكض دائمًا نحو الموج مناديًا

إيّـاه أن يتبعـه. لكـنّ جرحًا قديمًـا جعله يقول بحـذر: «أجل بالطبـع أذكره.. مـا هي أخبـاره..؟».

-" لقد مات قبل أسبوعين..»

انتفـض مـن مقعـدِه وراح يحملـقُ فيهـا.. كأنّه يطلـب منها أن تعيـدَ الجملةَ، أو أن تغـيّرَ قولها ليسـأل بصعوبة: «ماذا؟»

-" أجل لقد توفي جرّاء مرضٍ أصابَ كبدَه منذ عامين..»

ارتـد الى مقعـدِه، مـرّ بكفِه على شـعره كأنّه يحـاول أن ينزع هذه الحقيقـةَ التي أسـقطت عليه..

سألته:»لم تلتقيا منذ أن تركتَ المدينة أليس كذلك؟»

ـ"أجل»

وعـاد لينغمس في ذاكرتِه.. «نيسـو» أو نسـيم صديق طفولته، زميلـه في الصـف وابـن جيرانهـم، الـذي لـم يكـن يفارقه في النهار سـوى سـاعتين أو ثـلاث وقـت الظهـيرة، عندما يحين موعدُ الغـداء وتحضـير الـدروس اليومية..

نسـيم تغـير فجـأة في الشـهر الأخير، حـين قرر والدا سـامي مغـادرة عكا والسـفر الى الولايـات المتحدة بسـبب عمل والده. فجـأة صـار يختفـي نسـيم في معظم فـترات ما بعـد الظهر، صـار يذهـب ليرافـق ابـن عمـه، في جولاتـه عـلى الحنطور في المدينـة، دون أن يدعـوه. أو يرافـق ابـن خالـه، شـقيق ريـم ليتعلـم الصيـد منـه، دونَـه. كمـا لـم يعـد يشـاركه اللّعـب عندمـا يلتقـي أولاد البنايـة للّعـب في حديقتها.. تسـاءل كثيرًا عـن السـبب، وسـأل نفسـه عـشرات المـرات هل أخطـأ بحق

نسـيم دون أن ينتبـه..؟
لكـن عندما حان موعد السـفر وكان نسـيم على علـمٍ به.. ولم يظهـر ليودعه كـبر حزنُه كثـيرًا.. صعـد الى بيتهـم الذي يقع فـوق بيت سـامي ليطـرق البـاب وينتظـر أن يظهر نسـيم.. لكنّـه لـم يظهر.. فتحـت أمّ نسـيم البـاب، لتخـبره أنّ الاخير غـادر المنـزل، وقبلتـه مودعـة إيّاه متمنيـة له حيـاة موفقة.
لـم ينس يومًـا ذاك الحـزن الذي غمـره أثناء نزولـه الأدراج.. وهـو يفكـر بطريقـةٍ تتيح لـه اللقاء بنسـيم.. فكـر أن يكتب لـه رسـالة ويتركها في كـوة صغيرة في جـدار الحديقـة، وكانا عـادة يتبـادلان عـن طريقهـا الرسـائل ليرسـخا علاقتهمـا ببعـض، إن مرّ يـوم ولـم يلتقيا..
لكـن عندما وصـل الدرج الأخير لاقتـه نظرات أمِّه المتسـائلة.. احتـدم الغضـب في داخلـه وقـرر ألا يسـأل عنـه بعـد اليوم، وتقدم نحو السـيارة مسـتعدًا للسـفر.
أيقظتـه ريـم من شروده حـين قالـت:» لقد حدثنـي عنكَ قبل شهرين..»
نظـر اليهـا مسـتغربًا، منتظـرًا أن تتابـع، فاسـتطردت: «بـدأ يحدثنـي فجـأة عـن أيـام الطفولـة وعنك، تحـدث عن صداقتكمـا القويـة، وقـرار عائلتـك بالرحيل عـن المدينة، قال إنّـه بسـذاجة غَضِـبَ عليـك وشـعر أنّـك استسـلمت لقـرار والديـك وخنـتَ صداقتكمـا عندمـا وافقـتَ على السـفر، دون معارضـة. وقـرر أن يخفـف مـن تعلقـه بك بسـبب خشـيته

مـن فقـدكِ، إذ كانـت نفسـيته لا تـزال غـير مسـتقرة بعـد فقـدان والـده قبـل ذاك بثلاثـة أعـوام..»

سأل بصوتٍ متقطع..» حقًا !! أكان هذا هو السبب..؟»

ـ» لقـد أخبرنـي أنّـه تـرك لـك رسـالة في مخبـأ في حديقـة البنايـة.. ولـم يكـن متأكـدًا إن قرأتهـا.. لأنّه وجدهـا مكانها حـين تفقدهـا بعد سـفرِك فلـم يعلـم أقرأتها ومنعـك غضبُك مـن كتابـة رد.. أم لـم ترهـا..؟ لكنّه بقـي على أمـل أن تعود وتقرأهـا ذات يوم».

بقـي يحـدق اليهـا غـير مصـدقٍ مـا آل اليـه حـال يومِـه، وحـين وقـف زميلـه في العمـل متسـائلا هـل هنـاك مشـكلة مـا في المعاملـة..؟ مشـيرًا الى أنّـه قـد مـضى عـشر دقائق على موعـد اغـلاق الشركة، انتبـه للسـاعة، وتذكر أصدقـاءه الذين ينتظرونـه لمرافقتهـم الى البحـر.. فجأة صـاروا بعيدين جدًا.. عـاد الى نسـيم الـذي كان يفوقـه في الطول، شـعره أجعـد، ولونه أقـرب الى السـمرة.. وهـذا ما يميـز معظم سـكان المدينـة.. قدّره واحترمـه الجميع خاصـة لما أبدى من قـوة صبر بعد وفـاة والدِه، وهـو في السـابعة مـن عمره.. كيـف سـمح لنفسـهِ أن يغيب عنه مرتـين ولا يـترك لـه أيّ مجـال للقائه؟. تنهـد قائلا: «يـا الله..»

سـألته:» لمـاذا لم تزر عـكا؟ هل عدتـم منذ زمن مـن الولايات المتحدة؟»

-" لقـد عدنـا منـذ سـبع سـنوات وكنـت مشرفًا على دراسـة المرحلـة الثانويـة، الأمـر الـذي سـبب لي بعض البلبلة بسـبب

تغـير المناهـج والأجـواء، لكـنّ والـديَّ لـم يتأقلما مـع طبيعة الحيـاة هنـاك وقـررا العـودة.. فعدنـا الى النـاصرة حيـث تتواجـد معظم العائلـة.. والآن بعـد دراسـتي الجامعية أعمل مؤقتًـا هنـا في شركة الهواتـف النقالة.. ولم أزر عـكا إلّا مرتين أو ثلاثًـا مـذ عدنـا، وأتقصـد عـدم مرورنـا في الحـيّ.. لأنني أشـعر دائمًـا بنوع من الحـزن كلما فكـرت بالذهـاب هناك.. ومـاذا عنك مـاذا تفعلـين هنا؟»

ـ «لقـد تزوجـت منـذ بضعـة أشـهر شـابًا مـن سـكان هذه المدينة..»

بـارك لها.. وعـاد لينظر في أوراقهـا عاملا على تلبيـة حاجتها من الشركة.

بعـد أن غـادرت، وتمكـن مـن مغـادرة مكتبـه.. رنّ هاتفـه ليسـأله صديقـه إن غـادر المكتـب أم لا، وجـد نفسـه يخبره، أنّـه لـن يرافقهم.

صرخ بـه صديقُـه محتجًـا:» أحقًـا تقصـد ما تقـول..؟ نحن ننتظـرك منذ أكثـر من سـاعتين..»

فقال: « حسنًا غيركم ينتظرني منذ اثني عشر عامًا..».

طيلـة الطريـق وهو يلوم نفسَـه كيـف لم يتبـادر الى ذهنه أن يذهـب الى ذلك المـكان..؟ كيف فعلهـا وغادر البنايـة دون أن يتفقـد البريـد..؟ لمـاذا لم يسـأل صديقه مـا باله ولمـا يعامله بهـذه الطريقة؟

يقترب مـن مشـارف المدينة ويلحـظ التغيـيرات التي حصلت

في مدخل المدينة الشرقي.. ينظر بحزن الى علم اسرائيل الذي يرفعه نصبٌ لفارس على قمة تل نابليون.
يمضي ونبضات قلبه تزداد كلما ازداد قربًا من بيتِهم القديم.
ويزداد توتره في الدقائق الأخيرة تلك الرسالة التي تمناها وانتظرها، لم يعلم أنّها هنا تنتظره منذ أكثر من عقد.
هناك في ذات المكان.. ما زال قادرًا على سماعِ تلك الأصوات البعيدة.. وصخب طفولتهم الجميلة.. يحاول أن يختصر الوقتَ ليسير الى تلك الكوة في سور الحديقة ويخرجها بيد مرتعشة، ليقرأ:
« صديقي العزيز سامي.
انا بحبك كثير وبحب إنك تبقى هون معاي..
حاول إنك ترجع بسرعة..
صديقك نيسو..»
ينفجر بالبكاء.. ويستدير ليشق مرةً أخرى طريقه بين الأعشاب المرتفعة.. متجهًا نحو مقبرة المدينة.. لعل صديقه يسمعَه ويعلم أنّه عاد.. عاد متأخرًا.

نيسان 2013

وصايا الياسمين

حالما وصلتُ حيّنا القديم شعرتُ أي اشتياقٍ يجتاحني إليه.. وكان وجهها هي أول من بحثتُ عنه في المكان.. تمنيتُ أن تظهر صدفة، أو يصلها خبر ينبئها بقدومي.. لا أعلم لماذا بحثتُ عنها هي بالذات؟

ربما كان المطر هو السبب.. فحين يمرّ على الحجارة يمنحها لونًا أسمر يشبه لونها.. وتبدأ المزاريب تنشد قصصًا كتمتها السطوح أشهرًا.. فأذكر قصصها الجميلة وأشتاقها.. وربما لأنّها تعيد إلي صورة ضائعة أبحث عنها كلما سار بي الحنين الى القرية..

البردُ قارصٌ سارعت برفع حقائبي ودخول منزلنا، ليفرح والداي واخوتي بعودتي المفاجئة، في إجازة قصيرة من دراستي خارج حدود الوطن.

obeikandl.com

ألـح عليّ شـوقي اليهـا والى الأزقـة القديمة فقـررت الخروج، متسـللا.. قبـل أن تنتبـه أمـي اليَ وتحـاول منعي خشـية من الـبرد.. مضيـتُ أقصـد السـوق القديم. فـإذ بجميـع الأبواب موصـده لم يغامـر أحـد بالقـدوم الى حانوته، ممـا تبقى من حوانيـت مسـتخدمة.. وتمنح شـيئًا مـن الحياة لسـوق يموت يومًـا فيومًا.

سرتُ في الأزقـة القديمـة وراحـت تعاودنـي ذكرياتـي في حارتنـا، في رواحنـا وغدونـا الى المدرسـة وضجيجنـا مـا بعد الظهـر والـذي كان من الصعب اختزاله في شـتى أنـواع لعبنا، سـواء كان لعـب كـرة القـدم أم مطـاردة بعضنا في شـوارع الحـي مدججـين ببنادقنـا المزيفة..

تنسـاب قطرات مطـر خفيفة علي.. أستنشـقها بمـلء رئتي.. وتبقـى الطرقات في هذه المسـاحة الزمنية مسـاحة شـخصية لي اتبـادل وإياهـا عناقًا ونطفئ لهيب شـوق صنعـه الغياب.. وهنـا بـين خطـوة وأخـرى يمكننـي أن اسـتعيد صـوري الخاصـة مـع المـكان.. وأرى كـم غـاب ورحـل مـن رجـال ونسـاء كنـت ألتقيهـم تقريبًـا كل يـوم.. غابت طاولـة النرد عـن جلسـات مكتبـة العـم عبدالله قـرب عين الشـيخ.. وغاب الشـاعر عونـي[3] بزيـه الشـعبي الجميـل وبأغاني حـداه عن أزقتنـا وعن أعراسـنا.. وشـيئًا فشـيئًا راح يغيب صـوت عبد

3 الشـاعر عونـي سـبيت - (1930-2008) شـاعر شـعبي من قرية إقرث شـمال فلسـطين والتـي هُجِّـرت عـام 1948. أقـام في قريـة الرامة.

الحليـم عن المحلقـة الصغيرة قـرب القصر في البلـدة القديمة، وأغلقـت أبـواب كثـيرة خوفًا مـن الأشـباح.. التـي عرفها كثر وخافـوا أن يدلوا باسـمها فصـاروا يتركون الأزقـة ويباعدون. لأتوقـف عـن سـيري متجمـدًا أمـام كومـة مـن الحجـارة القديمـة.. كانـت لسـنوات كثـيرة غرفـةً مهجـورة قبـل أن تسـتحيلَ ركامًـا.. حزنتُ أنّ أهـل القرية ما زالـوا يهدمون ما تبقـى من المنازل القديمة بسـبب الأزمة السـكانية.. وشـعرتُ بكـبر الفقد الـذي يصيـب القرية.. ربمـا لأنّ صورة نسـجَتْها هي لهـا بأحاديثِها عـن فترة كانـت فيها القرية تنعـم بالحبِ والازدهـار والعيـون العذبـة، راحـت تضيع كلمـا كبرت..

وجدتنـي بالقـرب من بيتهـا، رأيتهـا للوهلة الأولى جالسـة في نظرتهـا التأملية خلـف ياسـمينتها كعادتها.. فعـدتُ ودققت النظـر لأتحقق مـن عدم جلوسـها في الخـارج، إذ يصعب علي أن أرى المـكان دون أن أرى أم خليـل جالسـة عـلى مقعدهـا الخشـبي القديـم متلفعـة بشـالها الأبيض المطـرز. تجلس في مواجهـة مدخـل حديقتها الصغـيرة والذي تقوم عنده شـجرة ياسـمين، أهـم ما عرفتـه عنهـا أنّها تكبرنـي بعدة عقـود. أم خليـل التـي تتجه نظراتهـا دومًا إمّـا صوب البوابة الخشـبية البنيـة العتيقـة.. أو صـوب الياسـمينة، بدت تنتظـر انتظارًا أبديًـا.. ولـم تفصح لأحـد يومًا عن حزنهـا أو عـن انتظارها. أحبهـا سـكان القريـة بتحفـظ شـديد.. فقالـوا أنّهـا صارت

غريبــة الأطــوار مــذ ســافر ابنهــا خليــل قبــل ثلاثــين عامًــا، ويبــدو أنّها لــم تتقبل ســفر ابنهــا وبقيــت متعلقــة بالعقود السابقة..

أراهــا تشــق البــاب لتظهــر ملامــح وجههــا وهــي تنظــر في ســاحتها الصغــيرة تبحــث عن شيء ما، فتســير اليــه بالسّرعة التــي تســمح لهــا بهــا ســنونها الثمانــون لتعــود وتدخــل المنــزل.. لــم أحاول أن أســارع كالعــادة لألقي عليهــا التحيّة، أو لأزورهــا وأســتمع لقصصهــا الجميلة عن القرية وناســها.. أحببــتُ أن أتأمــل المكان مــن بعيد قبــل أن أمضي اليهــا.. فها هــو يظهــر الآن بهيًــا هادئًــا كما تصفــه في حديثهــا عنه.

لقــد أحببــت ام خليل منــذ الطفولــة، وكنت مســتعدًا لخوض عراك مــع أصدقائي إن حــاول أحدهم ذكرها بســوء.. إذ كثيرًا مــا كانــوا يلمحــون الى أنّ مسًّــا مــن الجنــون أصــاب عقلها، وأنّهــا هــي «جنيــة عــين عبَديــة» التــي كانــت تهددنــا بهــا أحيانًــا وتقــول لنــا أنّها ســتذهب الى العــين في الجبل شــمال شرقــي القرية، وتطلــب اليها أن تأتــي الينا لتضربنــا وتمنعنا مــن اللعــب في الحي.

ولــم أعــترف لهــم يومًــا بالــسّر الــذي قالتــه لي عندمــا عظم خــوفي من الجنية الى درجــة أنّ الكوابيس صــارت تزورني كل ليلــة وأنهض صارخًــا في الليل.. يومهــا أخذني ابــي لزيارتها وطلــب منهــا أن تخبرنــي عــن القصــة التــي يُعتقــد أنّهــا

الحقيقــة حول (الرصــد القائم عــلى العين).. لتقــول لي أنّه ما مــن جنية ترقد هنــاك، ويبدو أنّ امرأة كانت تســتحم في العين عند المســاء عندما ســمعت أصــوات رجال قادمــين.. فاختبأت في المــكان وراحت تزغــرد وتغني حتى خاف الرجــال وابتعدوا ظانــين أنّ قصــة الجنيّة حقيقة.. وهي ليســت ســوى خرافة. لكنّهــا طلبــت منــي أن أحفــظ الــسّر وأن لا أخــبره لأصدقائي حتــى تســاعدها تهديداتها على إســكاتهم. لكنّني ســمعت أبي يطلــب منهــا قبــل أن نخــرج أن لا تعود لهــذا الأســلوب الذي قــد يســبب لنا عقــدًا نفســية.. وبــذا كفت عــن هذا منــذ ذلك اليــوم.. وبقــوا في سرهــم وفيما بينهــم يلقبونهــا بالجنيّة.

ابتســمت وقــررت أن أمــضي اليهــا.. عندمــا اقتربــت مــن البوابــة التــي قفلهــا عبــارة عــن غصن مــن الياســمين يجمع بــين حلقتــين مثبتتــان الى مصراعــي البوابــة، وفوقهــا تقــوم الياســمينة عــلى قــوس مشــكلة المدخــل الى الحديقــة، راحــت اجــراسٌ صغــيرة عــلى الياســمينة موصولــة بحبــل بالبوابــة تــرن. دخلــت نحــو البــاب وقبــل أن أطرقــه راعــت انتباهي زهــور عصا الراعي والنرجــس التي نمت في الجــرار الفخارية بقربــه. شــقت البــاب وتهلــل وجهها العجــوز حينمــا رأتني، لتأخذنــي الى صدرهــا.

بعــد لحظات من مجالســتها لاحظــت أنّ معالم الفــرح الأخير الــذي رأيتــه على وجههــا في زيارتــي الأخيرة قبل ثلاثة أشــهر

قـد غابـت.. كان البِـشر يمـلأ محياها إثـر زيارة ابنهـا خليل مـن غربتـه ونجاتـه مـن حـادث كاد يـودي بحياتـه هناك.. أتابـع ترهـل مشـيتها وحركاتهـا وهي تُعـد القهـوة وأقارن بينهـا وبـين زيارتي السـابقة.. وأتسـاءل مـاذا حصل؟

وفيما أنـا أتأمل الجـدران الحجرية القديمة وأستنشـق رائحة الباخـور المشـتعل سـألتها: «كيـف أحـوال خليـل يـا خالة.. هـل حادثـك؟» وجدتهـا تسـألني فجـأة «بتتذكـر جنية عين عبدية ؟»

انتفضـت قليلا في جلسـتي المسـترخية على الأريكة، وتسـاءلت «يـا الهـي ما الـذي ذكرها بهـا الآن..؟ هل قرأت أفـكاري قبل دخـولي المنـزل..»، سـألتها بعـد أن عدلـت جلسـتي: «نعـم.. لمـاذا تسـألينني عنها؟»

ـ بتتذكـر لمـا كنـت صغـير كيـف بطلـت تخـاف منهـا.. لما طردتهـا مـن عقلك..؟

أجبـت إيجابًا ومـا زلتُ على حيرتـي.. بقيت صامتـة للحظات حتـى أتـت بصينيـة القهـوة وفنجانَـيْن.. سـارعتُ بإحضار طاولـة صغـيرة.. بعد أن مـلأت الفنجانـين قالـت..: «بتعرف شـو كان بـدو خليـل بزيارتـه الأخـيرة..؟» بقيـت عينـاي متجهتـين صوبهـا تنتظـر إجابـة.. وانـا عالم أنّها سـتفصح عـن سـبب حزنهـا وضيقها..

تنهـدت وقالـت: ـ «بـدو يوخذنـي معـه لبـلاد الغربـة لأنـه

صـار يخـاف عـلي هـون مـن الأشـباح..
تصـور..! لمـا وصـل مـا تأمـل الياسـمينة وفـرح فيهـا زي عادتـه، كان أهـم اشي عنـده إنـه يغير قفـل البوابـة، والبوابة كلهـا.. عشـان خايـف علي مـن الاشـباح..»
ـ «لا بأس يا خالتي فمن حقه أن يخاف عليك..»
وضعـت فنجـان قهوتهـا بعـد أن أخـذت منه رشـفة وزادت الجدّيـة في ملامحهـا حـين قالـت:» يـا ابنـي.. مـا رح يكون تهديـد أشـباح اليـوم أكثـر مـن الأشـباح التـي إجتنـا قبـل أكثر من سـتة عقـود.. وكان قفل الياسـمين مدخلنـا.. بوقتها وصلـت عيلتنـا قريـة البقيعـة لما قـرر جـدي وأكـم ختيار.. أنّهـم يرجعـوا على البلد ومـا يكملـوا طريقهم للبنان. عشـان مـا يتركوا بيوتهم للأشـباح.. وأغلـب اللي رجعوا لاقـوا بيوتهم محفوظـة بفضـل اللي بقيـوا. كانت القرية تعـرف كيف تتحد رغـم كل الخلافـات، مـن وقـت ما عسـكرت قـوات الحدود في الملعـب شرق البلد.. للاحتـلال.. لمعركة الزيـت.. البلد صمدت، مـا فرقنـا الديـن ولا غـيره.. كان الـكل أقـرب يا ابنـي لجذع الزيتـون.. وما نسـوا الأيـام اللي جمعنـا فيها الياسـمين..»
زادت مـن تركيـز نظراتهـا صوب عينـي وقالت:» انـا بعرف انـه أهـل البلد مـرّات بحسـوني غريبـة.. وبتحاشـوا التعامل معـي.. بـس أنا بسـتنا تيصحـوا.. كلهـم بحكوا عن الأشـباح وعـن زعلهم مـن ورا الأبواب المسـكرة..

الأشـباح ما تدخـل وما بتعيـش لحالها غير اذا إحنـا منتركلها محل تفـوت منه..»

رشـفت رشـفة قهوة وصـدرت عنها تنهيـدة عميقـة لتقول:» لمـا اجـا خليل بـدوا يبـدل قفـل الياسـمين.. فهمت إنـه ما في ايـش اسـتنا.. حسـيت قديـش صـارت حزينـة هالبلـد وعم بتضيع . .

مبين يا ابني ما بقي حدا يشم ريحة الياسمين..».

2013\5\29

obeikandl.com

رسائل بين البحر والصحراء

قـررتُ أن أهجـر غرفتـي لبضـعِ سـاعاتٍ لعـلّ الطرقـاتِ تنقذنـي مـن كثافـةِ وجـودِكَ..

أمـضي وبالـكادِ أرى طريقـي، إثـر دمـوعٍ تزدحـمُ في عينـي كلمـا التقيـتُ باسـمكَ.. لا أعلـم أأبكـي ذاتـي أم أبكيـكَ؟ مذ تبعـتُ حماقاتـي وقـررتُ أن أتسـلل موصـدة البـاب خلفـي بهدوء..

لقـد علمـتُ أنّ هـذه اللّحظة لا بـدّ وتأتـي.. لا بـدّ وأن تُطفح العواصـفُ والحرائـقُ كيـلي.. ولا بـدّ أن أرحلَ..

وجدتنـي ألملـمُ حقائبـي، وأقرر هـذه المـرّة أن أهجـر الوطن لأهجـرك.. قلـتُ لا بـدّ أن يذيب صخـبُ المـدن ظلكّ..

هـا أنا أتخـذُ مجلسًـا في مقهـى بعيد عـن كلِ الصخـب الذي حلمـتُ بـه.. لأكتبـكَ وأكتبنـي في رسـائل، لعلني أصـل قريبًا

obeikandl.com

الى الرسـالة الأخيرة.. وأنسـاك..
ونسـتطيع كِلانـا أن نفهم مـا حصل.. فتسـتكين بعض الشيء عواصفنـا وتغيب عـن ذاكرةِ الواقـع لتصبحَ محـض ذكرى.. قـد تغفـو وقـد تسـتيقظُ ذات ربيـع، وقـد لا تكـون أكثر من بسـمةٍ تطوفُ حـول قلبينا..

1

لقـد بـدت العاصفـةُ يومهـا تهبُ مـن صـوبِ البحـرِ.. لملمتُ أشـيائي وهربتُ الى الجبـل.. ظننتني نجـوتُ.. لكنّ سرعان ما علمـتُ أننـي صرتُ في عمقهـا، حين راحـت تنطلق هـذه المرّة من بـين نوافذ قلبـي.. فحِـرتُ الى أيـن أذهب..؟
أأعـود الى البحـرِ لتتماهـى عاصفتي بـين عواصفِه فـلا يراها أحـد..؟ أم أبقـى متخفيـة خلـف الصخـور الى أن ترحـل العاصفـة؟
انتظرتُ..
وما رَحَلَـتْ..
أقمـتُ على صخـرةٍ جبليـة بعيـدة، ظننتهـا تقينـي عواصفَ البحـرِ وحرائـقَ صحراء قـد تخفيـك كثبانُها على حـين غرة.. لـم ترحـل العاصفـة.. فإمّـا تأتينـي ريـاحٌ رمليـة، أو زلازلُ مائيـة.. وراح منسـوبُ المـاءِ والرمـلِ يرتفـعُ أكثـرَ كل يومٍ.. لأنزلـق الى أحـد الطرفـين مسـاءً.. وأعـودُ صباحًـا لأتسـلقَ

صخرتـي بحثًـا عـن خـلاص..
تحتـل الزرقـةُ مدى عينـي.. تحمـر وجنتـا الشـمس.. وكلما تقدمـتُ نحـو البحـرِ خطـوة تغـيرت زرقـةُ المـدى.. أنظـر وأحسـبُ أنّـه سراب..
لأول مـرةٍ تخالـف وعـدَ الـسراب وتأتـي.. لتكـون أنـت.. أيُ جنـونٍ دفعـكَ لتكون أنـتَ..؟
أتأمـلُ تقدمَـكَ عـبر فواصـلَ صخريـة ما بـين الرمـلِ والماء.. تـتركُ ظلـكَ يتمـددُ بينهمـا كيفمـا يشـاء، وتـترك لي سـعةَ ذراعيـكَ تتقدمـان إلي..
أشـعرُ برغبـةٍ شـديدة في الركضِ نحـوكَ.. تخذلنـي قدماي.. تلاقينـي ذراعـاك، تلولـبُ أصابِعُـكَ جدَائِلي.. يغيـبُ رأسي في صـدرِكَ، وقدمـاي في البحرِ..
أخـرج مـن غرقـي.. لأطـل مـن عـلى كتِفـكَ عـلى آخـر خيطٍ ذهبـي يغيـب.. ويُبقي السـماء في حالةِ تردد ما بـين الاحمرار والأرجواني..
يرتفعُ المدُّ يتسـلق ساقـي، تمرُّ نسـائمُ غريبة تحشرُ نفسـها فيمـا بيننـا، تحمِلُ بـين كفيهـا عِطـرَكَ.. أظنني أحلـمُ، أباعِدُ لأذرَعَ وجهَـكَ، فأسـقطُ غريقـةً في عينيك.. وسرعان ما أشـدُّكَ إليَ أكثـر، وأهمسُ: «سـاعدني أنقذنِي مـن الغرقِ..»
فتقولُ وقد لاحت على وجهِكَ بسمةٌ: «فلنغرق معًا..».
باعـدتُ.. بـدأتُ بالسّـير، لأصرخ عـلى بُعـدِ خطـواتٍ: «تدركُ

أن المـوت لـن يتيحَ لنـا فرصة عناقـهِ معًـا.. مثلمـا فعلت بنا الحيـاةُ من قبلـهِ..».

تتبعنـي الى تلـةٍ قريبـة.. اعتليناها، لأجدكَ تسـتوقفني لتبحثَ في مـدى عينـي.. وتسـألني: «هل للحلـم من أمـل..؟». أتخبطُ في عينيـكَ التي يمتـدُ خلفهما البحـرُ.. خلفَكَ البحـرُ.. وخلفَكَ العاصفة..

قبلتُـكَ وهمسـتُ: «إنّهـا عاصفـةٌ.. وسـتمضي.. تبعثرنا قليلا لكننـا سـنرتبُ ذواتِنـا بعـد أن ترحل..».

ظننتُ ذلك..

وأثبتت لي الحياةُ هذه المرّة لا الموت.. أنني كنتُ على خطأ..

2

أتـرك البحـرَ والتلةَ وأمـضي.. لأختـار صخرتي مـرة أخرى.. أحـاول أن أحيـا كأنمـا شـيئًا لـم يكـن.. وكأنّـك لـم تخالف قـدرة النـص في المحافظـة عـلى رتابته.

يتجـه بـين الحـين والآخر نظـري نحو البحـر.. لأتسـاءلَ أينَ أنتَ ؟

تمـضي الأيامُ بثقـلٍ، وأتعثر بظِلـكَ كيفمـا سرْتُ.. حتى ضقتُ ذرعًـا بحـالي، وسرتُ صـوبَ البحـرِ مـرةً أخـرى.. لأبحثَ عن شـتاتِ ظلِكَ هناك..

صـار الشـاطئ مزدحمًـا فجـأةً.. تظهـرُ فيـه عيـونٌ كثيرة..

عـدا عينيك..

أتوقـفُ فجأة قـربَ المقهى القريـب أنظر تجـاه مقعدين كانا لنـا ذاك اليـوم.. المقعدان اللّـذان حققا أمنيتي العسـيرة في أن تدعونـي لتناول شيء مـا.. في مقهى مـا.. ذات يوم.

لـم أفهم كيـفَ تحقـق ذاك اللقـاء الغريـب.. ما الـذي دفعك لدعوتي للسّـير قريبًا مـن تخبطات البحـر..؟ لتتركني أتقدمك في السـير.. ولم أكـد اصدق حين اسـتدرت لأرى أنّـك ذاتك من كان هناك..

الآن وسـط هذا الغياب، أمام فـراغِ ذينك المقعديـن منّا.. أدركُ أنّكَ كنـتَ هنا.. وأدركُ حقيقـةَ رحيلِكَ..

المقعـدان في المقهـى بقيـا فارغـين لأيـامٍ عديـدة.. عـلى الأقل أجدهمـا عـلى هـذه الحـال كلمـا مـررت في المـكان، فأشـعر بالراحـة نوعًـا مـا، لا أحـدَ يجـرؤ أن يحتـل مـكانَ ظلينـا.. وأفكـر في كل مـرة أن أدخـل وأجلـس عـلى مقعـدي لأخالـكَ هنـاك.. ولأحميهمـا من تطفـل الزائريـن.. لكنني كنـتُ دومًا أقـلَ جـرأة مـن أن أفعل..

أعـود الى صخرتـي.. لهيـبٌ صحـراوي يأتـي مـن الخلـف.. كثافـةٌ رملية تتمدد في المدى.. تحجبُ أشـعةَ الشـمس.. أشـعرُ بتشـقق في صـدري.. فـأصرخُ:» أيـن أنت؟».

3

بعـد رحيـل الضوء عـن السـماء بلحظات هـذا المسـاء، رأيتُ طيـفَ نـور يتقـدم الى صخرتي.. النسـيم يتراقـصُ من حولي وأشـعر بلهيـبٍ في جوفي.. فأدركـتُ أنّهـا الصحراءُ..

أتقـدمُ نحـو النـورِ.. تغـوصُ قدمـاي في الرمـال.. مـا بـين خطـوة وأخـرى صرتُ أشـتهي المـوت.. أشـتهي قـوة عُظمى تنتشـلني مـن الهاويـة.. في منتصـفِ الطريـقِ ما بـين البحر والصحـراءِ تركتنـي وذهبـت..

ذهبـتَ وأنـا تائهـة.. أناديكَ ويشـقيني النـداءُ.. ولا مـن رد.. سـوى رجـع الصدى..

كنـتُ قد أخبرتُـكَ منـذ التقينا أنني أخـشى اعتيـادك، بقدرِ ما أخـشى وحدتـي حـين تلملـمُ ذاتَـك من بـين ذراعـي وتغيب.. سـألتني يومهـا: «لمـاذا تريـن عناويـن الغيـاب..؟». صمتُ.. فقـد أدركـتُ أنَّكَ تجيـد الحياة في الصحـراء.. مثلمـا تجيد أن تصحبنـي الى عمـق البحر..

أمّـا أنـا فلا أعـرف دربًا للنجـاة في كليهمـا، وقفـتُ مكاني ما بينهمـا.. وبعـد أن حاولـت كفُك مرارًا أن تشـدني وفشـلت.. تركتنـي ورحلت..

تركتنـي والغربـان والسـواد يحومـان حولي.. ها هـي الأرض تتشـقق من حولي.. تتشـقق جـدران قلبي.. تسـقط الجداول والأمنيـات من جسـدي.. لأول مـرةٍ تجيد حقًـا قتلي..

4

يأتيني صوتُكَ من بعيد: «ما بين البحر والصحراء لم أرحل..».

وتستطردُ: «مرَّ ضبابٌ كثيفٌ أثناء غفوتي وغيّبَكِ عن عيني.. أسيرُ في الدربِ أنظرُ بعيدًا.. أبحثُ عن وجهكِ خلفَ الضبابِ..

والآن تمعنين في السؤال «أينكَ؟» وأنا أحدق في معالمِ الأرضِ ولا أعثر لكِ على جواب..

هل صِرتُ عند حدودِ الصحراءِ دون أن أدري، أم أني حين أراكِ ستأخذني الريح الى وسط البحرِ..؟ أم تراني ما بينهما..؟ يختلط هذا المدى في عيني.. لم أعد أرى حدود المكان.. صرتُ في كلِ خطوة أحدقُ مليًا في الأرضِ وأتساءل أتربتها رملٌ أم ماء..؟

أحاول أن أسدّ مداخلَ قلبي.. فأشعر أنّ زوبعةً تكبر هناك..

أواربُ خلف صخرة خشية عليكِ.. من زوبعةٍ تسكنني.. رملية كانت أم طوفان..».

5

أحاولُ كثيرًا أن أخبركَ عن شذا الياسمين الذي يسافرُ في روحي كلما مرّت أنفاسُكَ بها.. روحي التي تفقهُ معنى الحياةِ حين تراك.. لم تملك يومًا أن تطلقَ جناحيها

للريـح.. في سـفرِها اليـكَ..
وأنتَ تقـفُ قبالتي تفتـحُ ذراعيـكَ وأبوابَ صدرِك، وتشـدني عميقًـا.. وتقول:» ليتَـكِ تبقين هنـا الى الأبد..».
تبعدنـي قليـلا لتنظـر في عينـي: «لا أبتعـد عنـكِ.. حبًـا في البُعـدِ.. ولا لأختـصر شـيئًا مـن جمال شـقائي بكِ.. أنـتِ هنا في القلـب مقامُـكِ. شـئتِ البقـاءَ.. أم شـئتِ الرحيـل..».
أدفـنُ وجهي في عبقِ عطرِكَ.. أسـتمعُ الى صخبِ جداولِ روحِكَ.. فينفجـر من عينـي ينبوعانِ.. تأخذُ جسَـدَكَ من ذراعـيَ لتجعلَ راحتيـكَ مصبًـا.. تُبَعثرُ ماءَ عيني، تسـألني «لماذا..؟».
ودون سماعِ جوابي تردني سريعًا إليكَ..
لـم أعد ذاتـي في تلكَ اللحظـة.. صرتُـكَ أنتَ.. لم أقـل: «ردني الي». نظـرتُ الى مـا يحيط وجودَنـا، كنا هناك في تلـكَ النقطة المحايدة مـا بين البحـرِ والصحراء..
كـم أحبُـكَ.. لـو تـدري.. كـم تمنيـتُ أن يتوقـفَ الزمـن عندَ تلـكَ اللّحظـة.. أن تـورقَ ابتسـامتُكَ في دربـي الى الأبـد..
لكنّهُ الزمنُ سار في دربِه.. تركنا لمصيرِنا ولم يتوقف..

6

يقـتربُ الظـلامُ مـن زرقـةِ السـماء.. يرتفـعُ المدُّ.. مـن خلفكَ أرى البحـرَ مـن كلِّ الجهـات.. أجدنـي أنتفـضُ بـين ذراعيكَ صارخـةً: «إنّـه السـيلُ.. إنّـهُ السـيلُ..» تمسـكُ بذراعـي

تســتوقفني.. أنظــرُ اليــكَ.. متســائلة:» أيــنَ أنــتَ..؟»
تهزني حائرًا وتتساءل :
« الى أيــن؟ أحيانًــا أشــعرُ أنّــكِ أنــتِ.. وأنّــكِ لســتِ إيــاكِ، في الوقــتِ ذاتِــهِ.. كلما حاولــت راحتــي أن تهبَكِ ما يهــبُ المُحِبُ لســيدته المعشــوقة من النســاء.. أراك تباعدين.. تبنين جدرانًا ثــم ترفضــين الــوداع. تبقــين عــليّ متخبطًــا حائرًا، أخدشــتُ وعــدَ الياســمين في عينيــكِ؟ أأتــركِ وأرحل..؟
لكن.. سرعان ما أسمع نداءكِ من خلف جدارَكِ..
أطــلّ عليــكِ.. أنظــرُكِ مــن شــقوق في الحجــارةِ المتيبســةِ.. وسرعــان مــا أجدنــي أبتســم لبســمتك.. أختنــقُ بشــوقي.. أحــاولُ التخفي خشــيةً عليكِ مــن حرائقــي وجحيمي.. أخشى أن تمــدي راحتيــكِ إلي ذات مســاء وتطيــلي العتــاب..
تقلبين الراحتين ولا تعثري على معالم أصابِعك.. وتبكين..
لأعيــش طيلــة عمــري تائهًــا معذبًــا بســيل الدمــوع ووجــع العتــاب.. انــا الذي كلمــا رأيتُــك تبحرين في عينــي وتباعدين..
اكتويتُ أكثر.. وما عثرتُ للجوى يومًا على ماء..
في كل مــرة أقــترب أكثــر.. يرتفع جدارٌ بيننا وأســقط مغشــيًا عــلي لأيامٍ.. وأقــرر في كل مــرة أن أرحل..
لأجدني في كل مرة أفشل..
لأعــود فجأة طفلا صغــيرًا لا يفقــه الحياة فكيف تحبــه امرأة وحــين يقدم لهــا زهوره يجدهــا تحزن..».

7

أحـدقُ في حـزن كلِماتِـكَ أتسـاءلُ كيف سـتدركُ حقًـا معالم روحـي..؟ كيـف سـتدرك أننـي لـم أعتـد اختصـارَ روعـةِ وجـودِك في آنيـةِ الأشـياء..

أتـدركُ أي عمـرٍ قضيـتُ باكيـةً وجعَ غيابِـك.. كم مـن المرّات نظـرتُ حـولي بذهـولٍ ظنًا منـي أنّك حـررتَ ظلَـك وأتيتَ..؟ وكم اعتـدتُ هلامية وجـودِكَ..؟

الآن حـين تأتـي.. أوغـلُ في عينيـكِ لأُسـقِطَ عن دربـي سرابية وجـودك . أتشـبث براحتيـك لأتحقق أنّـك أنتَ.. ولسـتَ ظلك قـد آتانـي متنكرًا. لأقـتربَ من نبـض قلبـك وأدركَ أنّـك أنتَ ولسـتَ غيرك..

وأترك روحي تحلق في السـماءِ وأشـعر أننّا فوق كل مسـلمات الحياة..

مـا كنـتَ يومًا رجـلا عاديًـا.. لأكون امـرأة عادية تـرضى بما أرضيـتَ بِـه من قبلي النسـاء..

أستميحك عذرًا..

8

يصبـح وعـدُ السّـماءِ وحلـمُ المسـاءِ شـقيًا عليـكَ.. تجدنـي أمامَـك وتفتـش مليًـا في الطرقـاتِ.. مـن أيـنَ الـدربُ الي..؟ تسـتيقظُ في روحِـكَ بهجةُ الربيـعِ حينًا، وتبكي جـراحَ قدميكَ

وكفيـكَ حينًا آخر..
لتتراجعَ شـيئًا فشـيئًا تسـألُ ذاتَك وتسـألني مرةً أخرى.. «الى أين؟».

9

مـا بـينَ البحـرِ والصحـراء لا أراك.. ظننتهـا لعبـةُ الغيـاب..
أصرخ بمـلء صوتـي يأتينـي أنينُـك مـن بعيد..
أعلـم متأخـرة أنّ عاصفـة زارتْـكَ ذات مسـاءٍ.. وأخفتـك في هوة..
على حافة القدرِ أنظر الى كل الاتجاهات.. أين أنتَ؟
كيـف أنقـذكَ؟ وانـا على خشـية مـن السـقوط في كلِ خطوة..
وعـلى علـم أنّ عزريـل يتربص بـين ذرات الرمل وبـين قطراتِ الماء..
حـارَ قلبـي لأصرخَ مـن عـلى صخرتـي..: «يـا رب كيـف الخـلاص..؟»
لتمطـرَ سـحبُ عينـاي.. فتنزلق الدمـوعُ عن حـدود الصخر الى البحـر.. وشـيئًا فشـيئًا راح يعلو منسـوبُ الماءِ..
يقـترب المـوج اليَ ويتوعد.. احتبسـتُ دمعي.. لكـن أفلتت من صـدري تنهيـدة.. ومضت الى الرمـل خلفي..
رفعـت حبيباتُـه وتركتهـا في يـدِ الريـحِ.. لتذروهـا الأخيرةُ في عيني..

جلســتُ القرفصاء أغمضــتُ عيني وصمتُّ.. تركـتُ العواصفَ تطرق نوافـذ قلبي وتخلعهـا.. وأنتظر..
أنتظـر أن تنقـذكَ قوةٌ الهيــة.. أصلي.. أكتمُ أنفـاسي.. أنصتُ.. ليتَك تقول شـيئًا..
لكن ما من صدى.. ما من صدى..
وارتفع المدّ أكثر..

10

وقـف بقربــي راح ينفـضُ بياض ريشــه الى أن اســتيقظتُ.. يرفع رأســه نحــو كل الاتجاهــات ويســألني «أيــن نحن؟»..
وفيمــا أحــاول تذكر مــا مرّ عــليّ في الليلــة الماضيــة.. أزيل ما ترســب من أمــلاح الدمــوع في محجريَ..
لتنتفض روحي متسائلة: «ترى كيف أصبحتَ؟».
أحــاول أن أعثــر عــلى دربٍ اليك.. ويلــح في ســؤاله عن طريق السعادة..؟
أجبتــه عــلى عجــلٍ.. وأنــا أنظر فــراغ المــدى.. «لــم أدرك بعد حلم النــوارس..»
ليقول: «لا بأس في أن تفعلي..»
أبتعــدُ عنــه قليــلا، لأبحــث عــن تقاســيم وجهِــكَ.. أمــا تزال النــيران تقيــم في جبينِــك.. أيســكن وجــع صــدرك.. أينــكَ؟
يتعقبني النورس سائلا:» كيف أخرج من التيه..؟»

أنظـر الى المـدى المائـي مـن حـولي.. وأرى قوس قـزح يظهر مـن بعيد.. همسـتُ قائلـة: «ابحث لـك عن أي درب سـتكون في مأمـن، لـن يعـود الطوفان»..
وحين شرّع جناحيه وابتلعه الأفق.. أدركتُ أنّه كان رسولك..
غاب قوس قزح.. لأجدني بعد أيام قليلة على خطأ..
حين لاحت بوادر الطوفان..

11

لسـتُ أدري كيـف أخذنا الطوفـان.. من أين جـاء بك؟ وكيف جمـع تيهنا في دوامـة واحدة..؟
تلوبُ فوق أرض البحر والصحراء وتمضي بعيدًا..
تتركنـي أحدق في عينيـكَ.. وأبحرُ في حدود بسـمتكَ سـعيدة.. لكن شـيئًا فشـيئًا يضيـق الخناق.
أسـألك أأكثرنا العبـث في تربة البحر والصحراء حتى اسـتفاق الاعصـار..؟ ماذا حصـل؟ وكيف الهرب؟
فتحدثنـي عـن قلـب نهشـت النـيرانُ جدرانـه.. وتنظـر الى الأسـفل نحو البحر تسـألني التلاشي بـين ذراتِـه.. فيما يزداد الصخـب.. وتـزداد قُربًـا.. أشـعر بالاختنـاق.. أنظـر في المدى أبحـث أين يمكـن أن يقـع حد الشـاطئ..؟
فجـأة تغيرت ملامحـكَ.. لم أعـد أراك.. أنظر ضبابية الأشـياء من حـولي وأنفضهـا... أينك؟

أحدق في اختلاط هذا المدى..
لأصرخ بكل قوتي:» كفى..»
تلقي بي الدوامة بعيدًا..

12

حـين اسـتيقظت وجـدت الأرض عـادت الى حالهـا الطبيعـي المـاء والرمـل والـتراب جميعها تعـرف حدودهـا.. أي شيء لم يتغـير في هـذا الوجود.. سـواي..
صرت فجـأة مجرد أشـلاء تُلَملَم وتُبعثر في لحظـة.. وحين لاح وجهُك ابتسـمتُ وبكيت في آن..
أردت أن أسألك كيف أضعت قلبي..؟ كيف بعثرتني..؟
لكني آثرت صمتي..
وخشية على فقدك..
قررت الرحيل.
هـذا مـا كان بيننـا وأدرك أنّـه أكـبر مـن التحديـق في مسـام الأشـياء.. ومـن جدليـة تفاصيـل الحياة.. خشـيتُ كثـيرًا على وهـج عينيـك في قلبي.. مـاذا لو راح هـذا النور يخبـو..؟ ماذا سيبقى لي؟
الآن وبعد هذي الرسائل أستطيع أن أفهم ما حصل..
باعـدت لئـلا تسـقط صورتُـك البهية عـن جدرانـيَ العالية..
فأفقـد ملامـح وجهك.

لتبقى أبدًا صورة بهية..
ولأجل بريق بعثته في صدري كان الرحيل..
ومن يدري قد يكون لأجله يومًا.. الإياب..

آب 2012

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

هذه القصص 10
احتمالات قليلة.. مسافات أقصر 16
هواجس عند مدامع المدينة 23
هي أسمال ذاكرة 29
جدائل الألحان والحروف 36
شجرة الزنزلخت 44
وميضٌ عند الهاوية 47
وهم قصيدة 50
خيمة 35
عودة من الغياب 55
فوق الركام وخلف الدخان 59
رهبة البناية 63
أمل 71
شتاءٌ آخر دونكَ 37
سؤال 77
أحلام صغيرة.. دروبٌ ضيقة 80
أشياء لم يجمدها الصقيع بعد.. 48
مع الريح وخلف العاصفة 96
انسياب الذاكرة 98
وصايا الياسمين 106
رسائل بين البحر والصحراء 114